إبراهيم زعرور

الشارع الذي رحل







إبراهيم زعرور

الشارع الذي رحل

شذرات من كتاب البكاء
وكتاب الضحك





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزيّ ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

الشارع الذي رحل

إبراهيم زعرور

الطبعة الأولى ، 2009

◆

الغلاف والصف الضوئي : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن



(1)

حكاية «أشبه ما تكون بالمقدمة»

خدعني الزمن!

غـافلني... وأخـذني عـلى حـين غـرة.. ذات صباح، صـحوت متكاسلاً كالعادة، أتمطى بعد نوم ثقيل. تفقدت أعـضائي، فإذا أنـا في الستين دون مقدمات.

خدعني وانتهى الأمر. وفرّت سنوات العمـر فجـأة، كحـشد من العصافير أطلقوا عليه النار!!

تأخرت كثيراً قبل أن أدرك حجم الخديعة.

فأي غبن هذا!!

كل شيء يضيع دفعة واحدة... ضاع. دون أن يبقى منه حتى ولـو مهمة واحدة أتشبث بها.

وأنا الآن أتأمل قتلاي من حولي مـثلما يقـف القائـد المهـزوم عـلى حطام أرض المعركة.

عشت مقتراً في صرف أيامي: ادخرتها سنةً سنةً، ويوماً فيوماً، وهزيمة هزيمة، لعل ذلك يجنبني لحظة الوقوف الذليل حاسر الرأس من ايما إكليل على مفترق الأيام. ولكن ذلك لم يعفني من حرج الاحتكام لقانون الهشاشة. وهكذا، وجدتني اقف عارياً امام ما بقي من الأيام، دون رصيد كافٍ لمواجهة ضلالات لابد أنها قادمة، وطيش لا بد آتٍ.

اقف كظلٍ رمادي بين ظلمتين: نهارٌ مزوّرُ اليقظة... وليل مزّورُ النعاس. لا زهو للانتصار، ولا مرارة للهزيمة.

افتح كتاب العمر، فتنثال حروف التاريخ من بين الصفحات مفككة الاوصال.

اعثر ــ بالكاد ــ بينها على كلمة واحدة لم تتفكك اوصالها. حروف تنثال كالمسامير: سوداء، وحادة، ومتشابهة.

في ستين عاماً خضت سبعة حروب كبيرة ومئات من الحروب الصغيرة خسرتها جميعاً:

في الاولى: دفعوا بي إلى الحرب دون سلاح

وفي الثانية: غافلوني وانقضوا عليّ نائماً.

وفي الثالثة: خانتني الصحابة وانقلبوا عليّ.

وفي الرابعة: دسّوا في شرابي السمّ فتحاملت على نفسي وحاربت مثلما يحارب رجل ميت.

وفي الخامسة: هزمت بحكم العادة.

وفي السادسة والسابعة: لم اعد قادراً على تذكر الاسباب.

فأية خدعة كبرى، هذه التي اجترحتها من بين كل هذه الهزائم: اعني خدعة ان ابقى حياً!

كنت مشغولاً بهزائمي، مستغرقاً باحصاء قتلاي. فلم التفت لخدعة الزمن الكبرى عندما أخذني بغتة؛ وانتزع مني ستين سنة كاملة وقذف بها إلى ماضٍ لا عودة منه ابداً.

ساكون اكثر حذراً بعد ان تعلمت الدرس: سأعيد ترتيب ما تبعثر من يقيني، اتمسك بكل الطيش اللازم، وكل الضلالات الممكنة. فعليها وحدها المعوّل في الانتصار بهذه المعركة المؤنثة ـــ من اولها إلى آخرها ـــ بالهزائم...

(2)

نشيد الإنشاد

بعد ان تعلم الصغير المكروب كيف يكلم العصافير والاشجار والفصول، حمل عصاه وطفق يضرب في الدروب.

فمّر بالقفار والجبال والرهبان والشتاء، وارتقى القمم، وهبط السفوح. وغابت عليه شموس، وطلعت اقمار.

وذات يوم مرّ بالساقيه فسألها:

فاذا تفعلين بكل هذه المياه؟؟

فتنهدت محزونة وقالت:

كل ما تراه يأخذه مني الجدول. وانا لا املك منه شيئاً..

فسأل الجدول:

ماذا تفعل بكل هذا السيل يا سيدي الجدول؟؟

فتنهد هذا مقهوراً وقال:

كل ما تراه مِلْك للنهر، وليس لي منه قطرة واحدة!!

فسأل النهر:

قل لي يا سيدي.. ماذا تفعل بكل هذه اللجج الجارفة؟

فتنهد النهر تنهيدة يائسٍ مهمومٍ وقال:

كل ما تراه اعطيه صاغراً للبحر حتى لا يتبقى لي منه قطرة واحدة...

وقف الصغير المكروب على شاطيء البحر، وقد هاله الموج المتلاطم فسأل:

ماذا تفعل بكل هذا البحر يا سيدي البحر؟؟.

فاجهش البحر بالبكاء وقال:

كل هذا الذي ترى لا يكفيني لارواء غليلِ مظلوم.. غليل مظلوم.. غليل مظلوم..

طرب الصغير المكروب لهذا الجواب الذي راح يتصادى مع الموج واخذ يُعيده ويستعيده، وينشره ويطويه حتى تحوّل إلى غناء يتردد في القصب والجذوع والاعواد، وفاض. فغمر الوديان والسهول

والبحار، وانعقد في تراتيل ارتفع بها الانشاد حتى وصل إلى عنان السماء..

ومنذ ذلك اليوم، ما يزال الصغير المكروب يجلس على الشاطئ ينفخ في الناي، ويتأمل البحر....



(3)

قط موفور الكرامة

تتواثب القطط حول حاويه القمامة،

تكشر عن انيابها ويعلو صراخها، وتنشب مخالبها في وجوه بعضها، حتى ان واحداً منها يفضل الانسحاب موفور الكرامة، ويغادر شاهراً ذيله كراية.

وفي النهاية،

فإن قطاً ماكراً واحداً هو الذي يستأثر بالغنيمة.

بينما تظل القطط الاخرى ترمقه واجمه:

تماماً مثلما يفعل الناس.



سؤال الناسك

خرج الناسك من جوف مغارتـه عنـد قمـة الجبـل، ووقـف امـام الفوهة يتأمل العالم.

لحيته المسترسلة فوق صدره، وثوبه القطني، وعصاه العقداء، كلها اشياء تقول انه ناسك خرج لتوّه من عتمة مغارته..

بهره الضياء المتـدفق مـن خـلال الـسحب الراحلـة فـوق رؤوس الجبال وعَبْر المطر المنهمر فوق السفوح.

ولدى تلقيه اول لسعة من سياط الـبرد والمطـر، طقطقـت عظامـه مثلما تفعل عظـام عجـوز غـضّنت جبينّـه اعـوامٌ جـاوزت الـسبعين. فابتسم.

وراح يستعرض الفضاء اللامتناهي هامساً:

"ايتها الام العظيمة... ايتها الام العظيمة..."

ثم ما لبث ان أخذ طريقة منحدراً، يتعثّر بالحجارة والاشواك والشقوق، وراح يضرب في الارض، يبحث عن حكيم يطرح عليه السؤال.

سؤال طالما حيّر الناسك.

مشى اياماً وليالي حتى تجرحت قدماه، فتوقف ليرتاح.

تأمل الافق مفكراً بانه قد "خان عزلته".

ولكنه ما لبث ان تصالح مع نفسه واخذ يهز رأسه قائلاً:

"من اجل السؤال يهون كل شيء"..

مر بقطعان الذئاب فوجدها على عادتها القديمة: تحدد انيابها بانتظار الخراف. فقال في نفسه: "ليس لدى هذه الذئاب حكيم يقدم جواباً"

فأجّل السؤال ومضى.

مرّ باللصوص فوجدهم على عادتهم يتربصون بالفقراء، فقال في ذات نفسه: "لو كان في هؤلاء من حكيم لما فعلوا ما يفعلونه". فأجّل

السؤال ومضى. ومرّ بجموع الفقراء، فوجدهم على عادتهم يتجرعـون الصبر في انتظار طويل. فهمس لنفسه "انتظار طويل لا معنى لـه" فأجّل السؤال. مرّ بالصغار يلعبون على عادتهم غارقين في الدهشه.

فقال في نفسه "في الدهشة شيء من السؤال، وشيء من الإجابة.. ولكنها ليست سؤالاً كاملاً، ولا اجابة كاملة.." فحمل سؤاله ومضى.

ومع الأيام والليالي، اضاع طريقه بين الوديان والسفوح والغابات والسهوب. فظل يمشي ويمشي على غير هدى، إلى ان مرّ بالسلطان.

فوجده يتسلى مع كلابه باستعراض جيوش الجلادين والمداحين والمهرجين.

فايقن انه قد ضل الطريق.

وما ان فتح فمه لينطق، حتى انقضوا عليه بالضرب بكل ماوصلت اليه ايديهم، حتى تقطعت منه الانفاس، وظنّوا انه مات.

وعندها توقفوا، ونفضلوا ايديهم قائلين

"هذا جزاء من يفكر بالسؤال عن عدل "السلطان"..

ثم جروّه من قدميه وألقوا به على قارعة الطريق.

ولكنه افاق بعد ايام محطماً، فعاد يجر قدميه على نفس الدروب حتى وصل إلى مغارته وانهار في الركن هناك.

وبينما هو يستعرض، متألماً، تفاصيل ما حدث له، جاءه الهاتف يهجس بالسؤال. فتيقن انه قد وقع في الخطأ عندما حاول ان يسأل الحاشية ان يدلوه على الطريق.

وهنا.

اخذته موجة من الضحك.

وظل يضحك ويضحك حتى مات...



شجرة العروس

ما إن استل طرف الخيط من الحكاية، حتى تنثال الاحداث والصور وحكايات الحكايات، لا اعرف بدايتها من النهاية.

تضيع الطرق، وتتعدد المسالك، وتتلا حق الاشارات والعلامات: بعضها مطموس، وكثيرها ماثل قائم على شواخص الطرق ما يزال. وكل واحد يمسك بتلابيب الآخر حيث الرواية ماثلة، والراوي مفقود: طواه الموت. او طواه النسيان.

ونحن اذ نحاول اعادة نشر ما انطوى وفات، فانما نحاول بعث حيواتنا الاولى، وأيامنا التي ذهبت.. مضت.. اسماؤنا القديمة، وتشوفاتنا، وخُطى من سبقونا..

تلك هي شواخص ايامنا التي اتى عليها الزمن، وعلاها صدأ النسيان.

فيا لها من كهولة، تلك التي اعادت رسم وجوه طفولتنا.. ويا لنا من كهول احتلّ ماضيهم مستقبلهم، واقام فيه.

وحتى قبل نهاية الكأس الاولى، ودهشتها المشروعة، تُصيبنا لجاجة الطيش كتلميذ مذنب، فنتشبث باول فكرة تداهمنا. حتى عندما لا تكون قد وُجدت قط.. وهنا نكون حالمين ولسنا بكاذبين..

من هنا سأبدأ حلمي.

من شجرة العروس التي كان آخر عهدي بها قبل اربعين..

اربعون دورة كاملة من دورات الفلك.. وهل تقاس الذكريات خارج معارج الافلاك ودورات الفصول!!

شاخصة على مرمى اربعين، وربما على مرمى الف من السنين تتوغل عميقاً ربما إلى ايام يوحنا المعمدان الذي طرح بذرتها عفو الخاطر.. فنبتت، وسمقت، وامتدت. او ربما اقرب قليلاً: إلى ايام شرحبيل بن حسنة وهو شرحبل بن عبدالله بن المطاع بن عمر بن عدي بن قطبه بن جندل بن حجر من كنده. ويقال من الاسد الذي لا بد بات ذات ليلة يرقب النجوم على تخوم جند اجنادين، فقذف ببذرتها فنبتت هناك لتظل شاهداً على مرور القوافل والكراديس وتعدد العابرين. اذ لا معنى لاشجار المفارق دون آثار هؤلاء الذين كتبوا

المكان بحكاياهم وآثارهم قبل ان نتقفّاهم نحن... ونعيد كتابتهم. شجرة بلوط عتيقة متوحدة، ليست كالاشجار،

تختلط ايحاءاتها وصورها في ذاكرتي بسدرة المنتهى. ابدعها الخالق في جملة ما ابدع على عدّة مفارق.

وعبثاً محاولة وصف سنديانة عتيقة على مفارق طرق لم تعرف غير القوافل وغبار اقدام العابرين. شيء يصعب قوله.

كنت اتخيلها أحياناً بذرة انزلقت من منقار طائر ابو زريق الطائش الواثق من نفسه حد التهّور، والذي، بدونه، لا تكتمل صورة، ولا تستمر حكاية.

سرقتني غزالة الطفولة ذات مساء ربيعي للصعود إلى عشه، وكانت فراخه الخمسة تفتح مناقيرها على أقصى اتساعها في وجهي، عندما جاء منقضّاً كالسهم، يسبقه نعيق المقاتل المستميت، مثلها كأن يفعل القعقاع بن عمرو التميمي. وراح ينقر رأسي مهاجماً ملتاثاً. تارةً يضرب بجناحيه في اليمين، وطوراً ينشب مخالبه ويقرع بمنقاره في الشمال. وكان الوادي قد امتلأ بالنعيق والصراخ والجلبة عندما جاءه

المدد من انثاه الهائجة فاثخناني، وطرداني شر طردة. فهمت على وجهي ناجياً لا الوي على شيء..

كانت تلك اولى هزائمي امام الطيور التي استمرت بعد ذلك حتى يومنا هـذا.. فـالطيور هـي اناشـيد الله في الارض. أسـتلهمها الطهـر والبهاء. وبدونها اموت كمداً..

ابو زريق هذا ما يزال يتجول في الذاكرة كاول مقاتل شرس، يقـيم في احلى صفحة مـن كتـاب الطفولـة.. ومـا زلـت احبـه كواحـد مـن الاولياء رغم طيشه وتصخابه وشعوذاته!!

الشجرة تستدعي الطير،

والطـير يـستدعي الـريح، والـريح تـستدعي رسـائلنا القديمـة ومحطات العمر وقطاراته. وكل ذلك يستدعي اما الـدموع او الغنـاء.. وكلاهما صورة لجوهر واحد. القطار الذي مضى بنا. من يدري. وربـما تستدعي الابتسامة الشائخة.. اشياء لا مسميات لهـا، وتستعـصي عـلى كل اللغات.. ولكنها في النهايـة هـي نحـن. مـا كنّـاه، ومـا كانـه مـن سبقونا. وما آلت اليه رحلتنا وانتهى اليه التسفار..

اما اللاحقون الذين ينسون ذاكرتهم عـلى المقاعـد، او في الحقائـب

والمطارات، فربما ينظرون إلى حكاياتنا باستخفاف. وربما بعين العطف والإشفاق أو الريبة. وربما يكّورّونها كورقة قديمة في راحة ايديهم، ويقذفونها بعيداً إلى حيث السلال المخصصة، القائمة في الاركان..

رويدكم يا هؤلاء.. لا تسرفوا على انفسكم، ولا تقنطوا.. فالحمام الزاجل ما زالت منه بقية، تحط ولو على انتينات الالتقاط البعيد.

يا للثراء الذي كنته هناك، والفقر الذي يكونني هنا!! وكل شيء يشيخ، حتى الزمن.

نعود إلى ما قاله شيخنا ابن عربي بان كل طريق هو في الاصل طريقة تكوين... اختطه السابقون خبط عشواء. والاّ، فما معنى هذا التخارج في تصريف الحروف بين الطريق والطريقة؟

وكل طريق منتهٍ إلى فكرة.

وكل فكرة إلى عالم او مثال، مهما تباعد السالكون.

ولهذا كانت تدهشنا القرى التسع التي تترامى كاشعاعات انبثقت من الشجرة، وتناثرت على بعد نداء منها. شجرة العروس. اسمها. تحط من حولها تسعة امثلة. لا تتطابق. ولا تتناسخ تسع قرى تركت

طابعها على هيئة ساكنيها بقدر ما وضعوا هم طابعهم فيها وتركوا آثار خطوهم وجهد سواعدهم.

تجـد واحـدتها مبنيّـة بالرقاقـات الحجريـة. مـسفوطة جـدرانها وحيطانها وسناسلها رقاقة فوق رقاقة. وتعبق بروائح المـاعز او القـش الحصيد، او زرق الدجاج.

وتـرى الثانيـة شـامخة بالجلاميـد المدقوقـه والمنحوتـه والمرصـوفة باحكام لا يأتيها زمهرير الشتاء ولا صهد الصيف من بـين ايـديها ولا اظهرها

ولا ترى من الثالثـة سـوى سـطوح تتلوهـا سـطوح مـن العقـود والقبـاب تتلاحـق وتتـساند في قـوام مـن المـلاط الكلـسي المعجـون "بزيبار" الزيت.. كلـما طـال بهـا الـزمن تـصلّبت واشـتدت. وكلهـا مفتوحة على جهة الريح، حيث تحط الرّحـال عنـد شـجرة العـروس. ومن هناك تتفارق إلى شتى الجهات. فلكل عابر سبيل عندها مـستراح ومحطة. ولكل واحد مهبط او مرتقـى إلى واحـدة مـن القـرى التـسع. يستروح بفيئها المسافر، والمروّح، والحاطب، وقاطع الطريـق، ومغنـي الربايه، والبائع الجوال، وحـاكي الحكايـات، وتحـط صـنوف الطـير،

وجماعات الدراويش واصحاب الطرق والكرامات، وجباة الضرائب، والمطاريد، والمرتلون العميان، والثائرون، وجلابو الماشية: ينفض واحدهم عنه الغبار ويستقي من ماء السبيل، وربما استظل من الهجير فغلبته سنة من الحلم، ونام حتى يوقظه آذان العصر الاتي من القرى متماوجاً على البعد ترتيلاً رقيقاً هفهافاً قادماً من اقرب القرى على بعد فرسخين.

الشاعر الاعمى هومر وكلبه الذي يقوده ولا يفارقه، لا بد مرا من هنا ذات غروب.. ولكن نباح كلاب اقرب القرى على كلبه الغريب، وترداد النباح القصي الذي استنبح كلاب سائر القرى، أنسّاه غواية الانشاد..

ترك الانشاد لهذه الجوقة المسائية، وظل صامتاً خاشعاً امام وشوشة الريح لاوراق الشجر، بما قاله كلب عوى فاستعوى سائر الكلاب...

وهذا هو حال الطراق ابدا عند المفارق: يغنون اويصمتون منتشين بكورال الغروب. ولا شيء يداني نشوة الغناء مثل دهشة الصمت.

طيبا ريوس اشاد له ذات يوم مدينة صيفية هناك ايضاً.

فعل ما فعله المنصور بمدينة بغداد:

وضع قطعاً من اللحم على رؤوس الرماح، ووزعها في اماكن شتى. وعندما وجد ان احداها ظلت على حالها اياماً دون ان يطالها الفساد، تراءى له ان الشفاء هو بعض هواء هذا المكان.

فأرسى قواعد اول بناء في المدينة، وسماها مدينة الريحان..

الريحان.. لان لريحها شميم الريحان ومذاق النبيذ. وكثيرون هم اولئك الذين ارهفوا السمع لدبيب التاريخ اثناء عبورهم من هناك.. ورووا حكاياتهم:

سمعوا صهيل الخيول، وعجلات العربات المثقلة بعناقيد العنب في طريقها إلى معاصر النبيذ.. واكثر منهم اولئك الذين كانوا يبحثون عن الذين غابوا وانقطعت اخبارهم. كلهم فتيه. وكلهم اعماه الغضب من سلطة ابيه. فغادر ذات مساء ولم يعد. وهؤلاء الآباء بحثوا في كل مكان حتى راحوا يتسقطون اخبار من انقطعت اخبارهم بالانصات إلى أفواه الآبار السحيقة التي كانت ذات يوم مخازن للزبيب. أيكون الفتى قد سقط في احد هذه الابار؟؟

يرهف الوالد السمع عند نوهة البئر فلا يسمع الا زفير الرياح.

لم يعثر اي منهم على المفقود، ولكنهم جميعاً عادوا بحكايات تترى عن رائحة الزبيب الراكدة في هذه الاغوار الصخرية السحيقة.

من يجرؤ على تكذيب هؤلاء.

من يجرؤ على تكذيب الفصول والروايات والزلزال الذي زلزل مدينة الريحان فخضّها حتى قوضّها وتركها ركاماً.. رجماً هائلاً بارتفاع تلّه تنكفيء جلاميدها مترددة فوق بعضها كتاريخ شاهد في كتاب مسطور.

ويستوقفك السؤال اذ تمر من هناك. اي عماليق هؤلاء الذين رفعوا تلك الجلاميد باحجامها المهولة وقناطيرها المقنطرة، كل جلمود كالقصر... ينيخ في مكانه جملان!! كيف حملوها ورفعوها"

وكيف نقلوها وباية آلة نقشوها.. الم اقل لكم بان كل طريق منتهٍ إلى مثال!؟

من تحت شجرة العروس تبدو اطلال مدينة الريحان كرجم هائل. احلام تاريخ تقوض وصار رجوماً. تقوض المعمار وظل الحلم به قائماً له دبيب تسمعه يشيع في ارجاء المكان. الاف الاشجار الحرجيه نبتت في فرجات الصخور، وراحت تتمايل مع الريح مثل يد معروقة تهوّم

بالحكمة.. بالتجدد.. بالتأبد.. بالتذكار. أتكون طفولة تغتذي من روح هذا المكان مهدورة مهما تقدم بها العمر؟ ام هي تنضاف إلى عناصر المكان الذي اغتذت منها.. أليس غريباً ان اجسادنا في صقع، وارواحنا في صقع آخر.. سهوب، مفازات، فيافٍ، وآماد نقطعها في مثل لمح البصر لنعود إلى احضان طفولتنا، إلى حيث الخلق الاول، والتكوين الابهى.

ونحن اذ نتجدد كل يوم، فاننا نستعيد ذلك الخلق. نسترجع ما تخطف الزمن على حين غفله منا.

كانت بدائيتنا هي شيفرتنا الداخلية.. الشيفرة التي يستحيل تزييفها او فك رموزها وطلاسمها. هي سرنا المكنون الذي يتبقى منا بعد ان تختفي اجسادنا..

لم نكن قد أُدرجنا في القوائم الاحصائية بعد. ولم تكن التكنولوجيا التي صارت تتولّى رسم اقدارنا مطروحة حتى على احلامنا.

وقصارى ما عرفناه في متأخر الأيام كان "راديو" بصندوق خشبي ثقيل، له عين سحرية خضراء تتوامض كضمير الكذوب. واول صوت انبثق عنه، امام الجمع المحتشد فضولاً امام هذا الجهاز

العجيب، اقول اول صوت انبثق عنه تسبب في ذعر الكثيرين، واغمى على البعض منهم رعباً.. وكانت شجرة العروس صافنة هي الاخرى.. من جانبي كنت أحسن الاصغاء اليها.. فكانت تسر لي بكل شيء.

وحدث ذات صباح ماطر، عندما كنت اغوص في الوحول في طريقي إلى اكبر القرى، حيث المدرسة الوحيده، ان فوجئت بجنود يروحون ويجيئون ويذرعون المكان. فصاح بي كبيرهم ان اتوقف حيث أنا.. كانوا يقصّون الأثر.

وكان ثمة قتيلان ممددين على قيد خطوات من شجرة العروس. احدهما على يمين الشارع، والثاني على يساره.

رأيتهما نصف مغمورين بالعشب المبتل، وكانت جروحهما ما تزال طريّة وساخنة. قتلا كما يبدو في آخر الليل على ايدي محترفين. وقد دل الأثر والخراطيش الفارغة المتناثرة في المكان على ان الفاعلين من اليهود. تسللوا ليلاً يستكشفون الاماكن، فاصطدموا بالرعاة الذين واجهوهم بالعصي. كانت عصا أحد القتيلين ملطخة بالدماء.

وكانت ثمة ثلاث بقرات قتلت أيضاً على غير مبعدة من

الرجلين.. لم افهم سبباً يدفع كائنا من كان لقتل حيوان لا يملك الا الاستسلام لعماء عجمته، الا اذا كان مجرماً محترفاً تقتله شهوة القتل!

حرمة انتهاك الحياة، وبشاعة القتل بتلك الطريقة، انهكا مخيلتي تماماً. كانت إحدى البقرات مدروزة بالرصاص من مقدمة راسها حتى اعلى مفصل الفخذ. تخيلت القاتل يقف إلى جانبها ويفرغ رشاشه في جانبها على طول البدن. قتل متعمد ومستهتر لحيوان اعجم.. صرت ارقد في الليل محطماً امام التساؤلات كمن ارهقه طول التسفار. واقعدتني حقائق العالم الواقعي عن القدرة على الحلم، حتى كدت انسى الشجرة.

احتل القتيلان، وصورة البقرة المدروزه بالرصاص، مكان الشجرة. وطوال شهر، ظل القتلى يطرقون باب نومي كل ليلة. ثم ما لبثت الزيارات ان بدأت تتباعد يوماً بعد يوم، حتى غابت صورة المجزرة تماماً. ولكنها تركت تحت الشجرة بعداً خرافياً جديداً. ثم ضاعت الصورة في زحام القراءات، والتعاويذ، والتراتيل، والاغاني، وتعاقب الوجوه، والأيام المزدحمة بالاحداث والارقام والاسماء والمواعيد. ولم يبق من كل ذلك غير مقعد حجري مستطيل يغرق في

الظل الداكن لبلوطة مترامية هرمة، جفت إلى جانبها الدماء وظلت شاهداً على ما حدث.

تقف على مفارق قرى تسع. وتحتضن في اسفل جذعها زيراً فخارياً بنى واهبُهُ حوله سوراً بطول الذراع من رقائق حجرية وملاط من الطين الاحمر، وعقد من فوقه قنطرة تحمي ماء الزير مما يتساقط حوله من زرق الطيور. ويغطي فوهة الزير قرص خشبي عتيق، منجور بشكل بدائي، له في وسطه مقبض من نفس الخشب الكالح وبجانبه قعب فخاري مقلوب. ما عليك - اذا كنت عطشاً – الاّ ان ترفع الغطاء وتغرف بالقعب ماء بارداً مُنجَّماً.

قال بائع الفخار موضحاً الامر: بان الماء المنجم، هو ما ترّوق وَصَفَا وسكن تحت ضوء النجوم، وابترد تحت هسيسها بما ترّشح منه حتى صار زلال تمجُّهُ الشفاه مجاً كما يمج العليل الترياق. وكان اصحاب الطريقة القادرية يقرأون عليه مرّة في السنة في ليلة العاشر من شعبان عندما يقيمون ليلة الذكر هناك. اما من ذا الذي يقوم بملء الزير كل يوم، فلم يكن ابداً مدار حديث او موضوع تساؤل. فطالما كان هناك طراق، وشجرة، وظل، ومقعد، فهناك لا بد زير بني حوله

بالرقاق والملاط، مليء بالماء، تعلـوه قنطـرة صـغيرة تحتهـا غطـاء مـن الخشب الكالح.

بائع الفخار الجوّال نفسه، روى فيما روى ان الماء يجدد نفسه! وهـو لا ينفد حتى لو نفد البحر لان فيه كلمة البركة وله حُرمَة الماء.

وهذه مسألة لا املك القدر الكافي من الجرأة للخوض فيها.

وبائع الفخار هذا كان يمر بقريتنـا مـرّة في الـسنة. يـصل إلى بيتنـا مساء، فينزل حمله من الفخار في شبكة مـن الحبـال عـلى ظهـر حمـاره. وحينما نكون قد تهيأنا للعشاء.. يتعشى معنا كواحد منا، ونقدم العلف لحماره المتعب، ثم يروح يسرد علينا حكاياته التي تبدأ من آخر الـدنيا. من بلاد عزة وما والاها من بلاد الـبلح في خـان يـونس ممـا يـلي بـلاد مصر.. كان حملُهُ من الفخار الاحمر المصنوع في تلك النـواحي: قـدور، اباريق، صحاف، جرار، عسالي، وكان حمله من الحكايات اكثر بكثير.

كان يدهـشنا حـول نـار الـشتاء باخبـاره العجيبـة. حتـى ارتـبط حضوره في ذاكرتنا بالشتاء. فمثلما لا بد من قدوم الـشتاء، لابـد ايـضاً من قدوم بائع الفخار ذات مساء.

وعندما انقطع عنا بعد سنين، واصبحنا بالكاد نـستخدم الفخـار،

تذكرناه ذات مساء.. وحاولنا ان نتذكر اسمه، فلم تسعفنا الذاكره..
واكتشفنا ساعتها اننا لم نكن قد سألناه عن اسمه قط طوال كلّ تلك
السنين.

وليست شجرة العروس هي الآبد الوحيد المقيم في الذاكرة.
فمفارق الطرق عندها ماثلة كبوابات مفتوحة على مصائر محلومة لا
تدركها الحدوس ولا النبوءات. كل بوابة تفتح على الاخرى: المشرقّه
والمغربّة والمقبّله والمشمّلة، والصاعدة والهابطة، والملتفة والمدّربة
والوعرة. ذاكرة عامرة بخطى العابرين الحفاة. شقتها اقدامهم،
وتركت على اديمها شيئاً يشبه الوشم. ترى فيه سراحهم ورواحهم
واصداء ايامهم.. ذهبوا جميعاً وظلت صورهم معلقة على المفارق،
نستعيدها على جناح قبرّه، او علامة منسيّة، او فرع سرّيسة اقتحمت
باطراف اصابع فروعها عرض الطريق...

وان شئت فالتمسها في اعواد نبتة شاحبة شاخت على تعاقب
أماسّيها واصطبارها اصوات الزمن الموغل في الضياع. التمسها في
روائح الزعتر والمريمية وشهيق الاف الاشجار وعبير زفيرها المبثوث
حول الطرق وفي الوهاد.

طرق اشبه بانهار النسيان..

عز الدين القسام ترك من دمه علامة هناك.. ثائر بجبّة وعمامه.. تعقبّته البنادق في دورة الصراع الدموي بين بروتوكلات الغرب ودروشات الشرق.. بين لؤم المخرز ونداوة الكلف. فوقع هناك.

جال حول مقتله مضرّجا بالدماء تصّاعد روحه في حضرة اشجار البلوط، فجاءته الوديان والطرق والاشجار والنجوم وانحنت جميعاً حول جسده وبايعته بالامامه..

وفي ذات المساء، عندما كان عز الدين ما يزال ممدداً؛ تدفق المريدون والاسياد والمعلمون والاتباع من اذرح واجنادين وبيسان وفحل وبصرى وقيساريه واليرموك. فكان ممن حضر ابو عبيدة وشرحبيل وخالد والقعقاع مازن بن صعصعة ومذعور بن عدي وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة وزياد بن حنظلة وعكرمة وعبد الرحمن بن خالد وحبيب بن مسلمة وصفوان بن أمية والاعور بن سفيان وابن ذي الخمار وعمارة بن خويلد وعمرو بن عنبة وشرحبيل والسمط بن الاسود ومعاوية بن خديج وجندب بن عمر ولقيط بن عبد القيس ويزيد والزبير وخالد وضرار ومسروق والمقداد وقد صلى

فيهم عبد الله بن مسعود صلاة الجنازة ثم عادوا إلى كراديسهم وجندهم بعد ان بايعوا. ثم توغلوا في شتى الطرق المحفوفة بفوضى الاشجار بعد ان هبط السكون. فاذا ما وقفت هناك أحسست بالارواح تفر من حولك وتتوارى. تسمع حفيفها ورفيف اجنحتها وتستوحش لاختفائها ليظل الصمت معلقاً كالاجراس المجهوره.

تتوقف خاشعاً مستسلماً للصمت الآسر. صمت لا يستطيع اتقانه الا طريق مهجور في غابه. انت في مكان تنضم حناياه على دماء شهيد. توقف، تأمل. وإياك ان تجرح قداسة اللحظة بفحش الدموع.. فما حدث اكبر من ان يُبكي.

ففي ضربة تاريخ طائشة، استولى يورام على شجرتي.. يورام بن يهودا. اخذها. احتل مكاني مستعيداً حكاية المخرز مع الكف.

وجاءت جرّافاته لتكنس مقامات احلامي ومهابط صلواتي لتشيد في مكانها مستوطنة.

ضربة طائشة من تاريخ ارعن، جعلته يضع نقطة للتفتيش فوق جثمان مفارق الطرق العتيقة التسع.

فاذا ما استطاع يورام ان يحب الشجرة مثلما احببتها. ويؤسطرها مثلما اسطرتها وتماهيت معها، فليأخذها... مبروكة عليه.

اما اذا لم يستطع، فستَظل لي.

ويكفيني منها الان، انها ستظل مقيمة هناك: كروح، وذاكرة، ولعنة...



شـاعر

التقيتهُ صدفة

فبدا لي اشبه ما يكون بعود المكنسة.

وكان مُتعباً..

واترك لضمائركم بعد ذلك تقدير هزاله ونحول عوده.

اشفقت عليه.

وفكّرت بمنحه ركنا مؤقتاً يؤويه في فيافي احزاني.

ولكنني تراجعت في اللحظة الاخيرة.

وقدمت له ما هو اكثر قيمةً من ذلك...

مَنَحته أُذناً صاغية.. "وتعلمون اننـا في زمـن لا يـستمع فيـه أحـد لأحد"

لم يتمالك نفسه امام هذا السخاء. فاستخفّه الفرح

وطار به الطيش إلى حدود البوح،

فاعترف لي بانه شاعر!!

وعندها أُسقط في يدي.

وكان لا بد من مصارحته بان حالته ميؤوس منها...

وتستعصي على أيّة مساعدة ممكنة...



فقر الفقراء

كان الطفل ينام ملء جفونه مطمئناً.

فليس له في الخارج شيء يخاف عليه من اللصوص: لا عربات ولا خيول ولا احلام سائبة يمكن ان تمتد اليها ايدي الطامعين

كان اكثر فقراً من عصفور...

وهكذا كان ينام مطمئناً. مكتفياً بطفولته.. يحتضنها وينام عليها.

ومرّت سنوات. فكبر الطفل. وسأل امه ذات يوم.

لماذا نحن فقراء هكذا يا أمي؟؟.

فقالت له متبّرمة:

ما ادراني أنا.. إسأل السماء.

وذات ليلة امتلأت بالنجوم، توجه الصغير بسؤاله إلى السماء:

لماذا نحن فقراء إلى هذا الحد ايتها السماء؟؟.

بابتسمت السماء ابتسامتها الدبلوماسية العريضة المعهودة وقالت:

وكيف يكون فقيراً من عنده كل هذه النجوم والاشجار والعصافير، وعنده كل هذا ا لانشاد والصلاة والغناء والفصول والازهار.

وكيف يكون فقيراً من عنده كل هذا الضحك، وهذا البكاء.

وكان اللصوص الكبار قد بثوا عيونهم واعوانهم يسترقون السمع لهمسات الليل. فالتقط هؤلاء كل ما دار من حديث بين الصبي وبين السماء ونقلوه إلى سادتهم بالحرف الواحد.

وهكذا.

تداعى العرّابون إلى مؤتمر عاجل.. وجيء بالخبراء. وطُرحت المسألة برمتها على مائدة البحث. وتقرر وضع حد لهذه الظاهرة قبل ان تستشري.

وفي المساء، كان الناطق الرسمي يملأ الشاشات على طول العالم وعرضه وهو يصرخ غاضباً بالصحفيين:

سنضع حداً لهذه الفوضى... لا بد من اجراءات رادعة..

سنضع حداً لفقر الفقراء...

وليلتها؛ نام الصبي على ظهره. وغفى وهو يحدّق في السماء، وقد كفّ عن الاحلام نهائياً...

طوابير

بعد ان انتظم بهم الطابور، وبدأوا يغضون الطرف عن مشاغلهم الصغيرة المؤقتة.

اخذوا بفض الاختام عن اغلفة قلوبهم، مستلهمين تجارب آبائهم الغابرين في قطع الرؤوس.

وسرعان ما راحوا يتلاومون. بادئين من نهايات قصصهم المعادة إياها.

وكانوا لسنوات خلت،واخرى ستخلو بعد حين، قد اعتادوا حالة الاصطفاف هذه بانتظار شيء ما.

شيء ليس من طبيعته المجيء ابداً.

انتظار طويل كصبر ممرور. وعلى شفتي كل واحد منهم: طبالٌ، وجلادٌ، وحارس.

شجرة الصفصاف اياها.. تلك التي لم تعرف الخُيلاء يوماً، انتحت جانباً بالشاعر الذي لا يعجبه العجب... وصارحته بهواجسها بعد ان قرَّ في يقينها انهم ضللوها.

ظل الطابور يتزايد ويمتد... يتزايد ويمتد، حتى ملأ فراغ الأيام.

اثنان فقط ظلا خارج الطابور:

صفصافة مُضَلّله،

وشاعر قلما يخطئ حدسه..

وكان الشاعر يتوجس خيفة ويتشمم رياح الأيام.

وعندما نودي بهم: حيَّ على البكاء.

طأطأوا رؤوسهم غير عابئين وتقدموا – محافظين على نفس الترتيب الابجدي القديم – ليتسلموا الفؤوس واحداً فواحداً.

وفيما كانت شجرة الصفصاف تتهاوى،

ندت عن الشاعر صرخه تتمزق لها نياط القلوب...

محاكمة

رفضوا شهادتي..

طعنوا بها، ورفضوها...

اعتبروني منقوص الاهليه.

تفاهمت مع نفسي وقلت لها مواسياً:

لا بأس. سنرفع الامر إلى القاضي. نحتجّ لديه لانصافنا. فعنده أمُّ العدل، وميزانها، وعماها..

منحني القاضي نصف إلتفاتة كان يُعدّها للمتهم التالي، واشار لي بالجلوس بهدوء. ثم واصل اطلاق الاحكام.

فقضى بكل ما املاه عليه ضميره، مراعياً ظروف ضيق المكان في الحبس، وضرورات السلامه، وقلة الخدمات.

فحكم على الجناة والشهود والجمهور. وحكم على السابلة الذين تصادف مرورهم من امام المحكمة.

ولم ينس اثناء مغادرته المنصة من اي يرشقني بنظرة استهجان كاملة!!

وسرعان ما خَلَت القاعه. وبقيت وحدي

فداخلني شعور بالغبن حيال هذا الاهمال المتعّمد.

كان يمكنني بالطبع، ان اصرخ ملء الجنون. أن أحطم الميزان والمنصة وقفص الاتهام. وان اعوى كما يفعل اي ذئب جريح وحيد. ولكنني لم افعل شيئاً من ذلك. بل عمدت إلى المَنَّصّة وافرغت فوقها كل ما بقي في جيوبي من الاسئلة...

وهي اسئلة لم تكن ذات قيمة على اية حال..

مستقاة من عالم قديم لم يبق منه شيء...



قصة الأيام السبعة

بعدما تبيّن لي انـه لا منـاص مـن وقـوع يـوم الاثنـين بـين الاحـد والثلاثاء، فقد قررت غض الطرف، مؤقتاً، عن هذه المسأله.

ورغم انه لا يوجد ما هو اكثر مدعاة لخيبة الاملِ من يـوم الثلاثـاء سوى ما تجيء به الاربعاءات مـن احباطـات عـادة، الاّ اننـي وطنـت النفس ايضاً على التغاضي عما يمكـن اعتبـاره هفـوات غـير متعمـدّة، يرتكبها الثلاثـاء، مقارنـة بـما يقترفـه الخمـيس مـن حماقـات محكمـة، ومتعمّده.

فالخميس يجيء متهوراً ايضاً.

وكعادته دائماً يقترف من الطيش ما لا يمكن التسامح معه ابداً.

فمنذ الصباح، تنفلت الفوضى من عقالها، كبهيمـة طـال حبـسها، فتنطلق – اعني الفوضى وليس البهيمة – على سـجيتها تجـوس اليـوم من اقصاه إلى اقصاه. دونما مراعاة حتى لحرمة قيلولة ما بعد الظهيرة.

ولا يسعنا بهذه المناسبة، الاّ التنويه بقيلولة ما بعد الظهيرة هذه. فالخميس يصلح للقيلولة ايضاً. شأنه في ذلك شأن الأحد، دون المساس بالممكنات الاخرى التي قد يحاجج البعض بضرورة التنويه بها ايضاً. اما الجمعه، فهو، وكما لا يخفى على الجميع، موقوف لاحصاء الخسائر بطبيعة الحال..

اعني خسائر المعركة التي خيضت باقل قدرٍ من الكفاءة طوال الاسبوع المنصرم.. وهي بطبيعتها كأية حرب أخرى، نخوضها بارتجال ونخسرها بارتجال.

وعندما نبدأ باحصاء خسائرنا، وثني اصابعنا واحداً فواحداً، مبتدئين بالخنصر، نكتشف ان ذخيرتنا من الاشياء قد نفذت منذ الاثنين الفائت لندخل في السبت البليد منهكين تماماً.

ولكم يقتلني هذا اليوم بلا مبالاته!!

ولكم تمنيت ان اعثر عليه مشنوقاً وملقىً به في آخر الأيام..

فيه كل غرور المناسبات البليدة وسذاجة عواطفها. حقير بلا

موقف. وانتهازي يصلح لان يكون وعاءً توضع فيه جميع المناسبات التقليدية: بدءاً بعيد الاحتفال بيوم المسامير الصدئة وانتهاء بعيد اليعاسيب الضالّه.

البعض من ذوي النوايا الطيبة، وبعد ان تمكّن السبت من خداعهم، ولم يعودوا قادرين على ادراك حجم الدمار الذي احدثه فيهم، انطلقوا متحررين بعد ان تشكلت لديهم قناعة خاطئة، بانهم قد ادّوا واجبهم كاملاً، وقدّموا للعالم اقصى ما يمكن تقديمه. ولم يعد امامهم الاّ التمتع بتلك الخدمات الصغيرة التي تقدمها لهم مرافق بائسة ما تزال حالتها تتدهور باستمرار...



موكب الغروب

قال لي جدي ذات مرّة:

الغروب عبادة.

فيه تسجد الوديان،

وتسبّح الجبال

ويخشع الشجر..

وفيه تخرج الملائكة من عين الماء لتوزع الخير على الناس. في الغروب، يا ولدي ينخلع القلب.. فلا ترم الحجارة على العين والطريق. فتؤذي المارّه وتؤذي الملائكه.

ومنذ ذلك الوقت، صرت اجلس هادئاً على قمة الجرف فوق عين الماء واراقب الغادين والرائحين. اجلس دائماً على نفس الصخرة.

واعجبت الملائكة بسلوكي، فتركت لي لفة من الحلوى فوق

الجرف ذات مساء... وبعد مدّة تركت لي ذلك الفخ الذي طالما حدثت جدي عنه... ثم توطدت العلاقة بيننا ــ بعد عودة جدي من المدينة ــ فتركت لي سكيناً جميلاً يضم إلى جانب النصل ملعقة ومثقاباً ومنشاراً صغيراً.

كم كان جميلاً عالم الملائكة ذاك: حيث يعود الرعيان مع الغروب، وتمرُّ القطعان والحراثون والحطّابات والجنود والعربات وجامعو الفطر والباعة الجوالون والنساء الحوامل واللصوص ومات جدي...

فبكيته كثيراً في السنة الاولى،

وتذكرته حزيناً في الثانية.

ثم نسيته في الثالثة.

وتوالت الاعوام، وكرّت سنوات العمر، فكبر الصغار وتفرقوا، وابتلعتني المدن والمحطات وهموم الأيام. وتحطمت مراكبي على الشطآن. وتكسرت مجاديفي، حتى لم يبق من ذلك الصبي الصغير شيء.

فقد أخذت الحياة كل ما يمكن أخذه.

ولم تبق لي غير كومة من الشعر الابيض والعديد من الخطوط العميقة خلفها عبور الأيام على صفحة الوجه كالآثار.

وقذفتني الامواج مجدداً إلى هناك. فقالوا:

حان وقت اقتسام ميراث الجد.

قلت لهم: يكفيني صخرة الجرف التي تطل على العين..

فاستغرقوا في الضحك وقالوا:

كان غيرك اشطر... فتلك دخلت في التنظيم وقيمتها تفوق نصيبك بكثير..

سكتت خاشعاً امام رهبة ذلك الغروب. وحملت احزاني وصمتي ومشيت إلى الصخرة. وجلست فوقها.

كان الجبل يئن تحت وطأة المستوطنة الجديدة. وقد غاضت مياه العين، وجفّت، وتقطعّت شرايين الوادي بالاسفلت. وغابت الاشجار. طال جلوسي وصمتي.. فلم تعبر الرعيان ولا الحطابات ولا جامعو الفطر ولا القطعان ولا العربات...

لم يعبر أحد.

وهبطت عتمة المساء من حولي وتعمّق الصمت فتشّوفت موكب المساء يسير متهملاً على الطريق القديم. كانوا اربعة:

جدي، والحزن، وملائكة الماء، والذكرى.

كانوا يحملون نعش طفولتي ويسيرون متمهلين في موكب الغروب.

وأحسست بالصخرة من تحتي باردة ومرّطبه. فتحسستها باصابعي لاكتشف انها كانت مثلي.... تبكي بصمت...



مصالحة

السبب في اننا لا ننجح في عقد مصالحة مع الحياة بسيط جداً.

فهي تهزمنا في البداية ومنذ ان نولد، ثم تبدأ بعد ذلك بشن غاراتها علينا. وتطالبنا بالمصالحة.

شيء من مثل هذا يحدث لنا في عالم السياسة.

فتأملوا ذلك!!



البرهان

صار العالم شديد الرداءة:

وليست المجاملات والاحتفالات والصور التذكارية والجوائز والبهارج والخطابات الرنانة التي تتحدث عن احراز المزيد من النجاح، سوى الدلائل على ذلك...



الخروج على قواعد اللعبة

أيامنا سائبة وراء حروف العطف:

ولدتُ، فَصرخت، ثم مت..

ايامنا هذه التـي تعرفونهـا لم تعـد كافيـة... لا تفـي بـالغرض كـما يقولون.

فما زال بين تلك الحروف مـساحات شاسـعة مـن البيـاض... و.. الانتظار.

ونحن نُسارع إلى ملئها بسواد ايامنا

بعضنا ــ ومن باب الحرص على المصلحة العامة ــ يحـاول ادخـال تحسينات جَمّة على هيكل ايامه، فيملؤها بالحبر السري، وربما يـدخل في هدنة علنيّة وينامُ مُكبّاً على وجهه.

ولكن حتى هؤلاء،

لم تسعفهم حيلهم والاعيبهم البارعه.

فهـم حتـى لم يتوصـلوا إلى نهايـة سـعيدة لحكايـة ابريـق الزيـت المعروفة. وظلوا محصورين بين خيارين كل منهما اكثر خطأ من الآخر.

فلا الذين قالوا نعم حصلوا على قطرةٍ واحدةٍ من الابريق؛

ولا الذين قالوا لا...

واحد فقط من بين الجميع خرج على قواعد اللعبه.. ونجح

وكان مكتوباً على قبره:

"ألم أَقلُ لكُم؟؟"



حزمة القش

داهمت العجوز نوبة مفاجئة من الانتعاش في عـصر ذلـك اليـوم، فنسي شيخوخته وخاطب زوجته العجوز قائلاً:

انني لا اتوقف عن التفكير بهؤلاء البليدين الذين يميتون انفسهم قبل ان يموتوا... يموتون قبل الاوان.. وقد توصلت – بعد التمعن – إلى انني بحاجة إلى تجديد شبابي. وسوف اسهر هـذه الليلة في افخم فندق في هذا البلد والاقاليم المجاورة

زوجته، التي اعتادت على مثل نوبات طيشة المفاجئة هذه لم تدهش لهذا الهذر الذي سمعت من مثله الكثير، واصلت مسح يديها ووجهها بطرف مريلتها، ثم سحبت كرسي القش الواطيء، وهبطت فوقه كالفيل

وقالت وكأنها تواصل توبيخاً من الصعب تحديد بدايته

"لا اظنهم بحاجة إلى قرود مثلك يتفرجون عليها هناك.. وخيرٌ لك ان تفكر بتسديد فاتورة الكهرباء التي سيقطعونها عنا غداً. ألا ترى نفسك في المرآة يا رجل؟؟ لماذا لا تذهب لما هو اجدى.. إلى حلاق يشذب لك حزمة القش المنفوش هذه، مثل نتشة بيضاء... اقطع ذراعي ان وجدت في هذه المدينة كلها – والاقاليم المجاوره – رجلاً واحداً له مثل خِفَّة عقلك.

فردّ عليها:

سنرى من هو حفيف العقل فينا يا فرس النهر، يا فيله،

ثم انطلق خارجاً وفي جيبه راتبه التقاعدي لم يُمس بعد.

ذهب إلى حيث لا يعرف أحدٌ، وعاد ببدلة مُستأجرة، وربطة عنق صفراء، وقميصاً بازرار مُذهّبة وقد وضع في طرف فمه سيجاراً لزوم المناسبة وتوجه مثل طاووس مبلول بالماء إلى الفندق.

وهناك، راح، وهو يحدق في الاشياء الجديدة اللامعة، يهنّيء نفسه بالخلاص من البطاطا المهروسة التي "لا تمل تلك العجوز اللعينة" من حشوه بها صباح مساء... وهناك ايضاً حدّث نفسه قائلاً:

لن افكر بشيء اسمه الشقاء بعد اليوم. ويكفيني ما انا فيه من شقاء مع فرس النهر... وداعاً للبندوره، وداعاً لاوراق الخس، ولتموتي بغيظك يا فرس النهر.. لسوف اكافيء نفسي باشهى عشاء سمعت به المدينة. عشاء من تلك اللحوم المترفة التي لا اعرف ماذا يسمونها. وطلاق بالثلاث للخس والبندوره والبطاطا..

وسرعان ما قطع النادل عليه حبل تخيلاته:

ماذا يأمر سيدي للعشاء؟

فابتسم العجوز ابتسامة عريضة مربتّاً على كرشه مثلما يفعل الاغنياء في الافلام وقال: هات لي اغلى ما عندكم من الطعام.. قال ذلك بقوّة... وبلهجة اقل وضوحاً يخاطب بها نفسه "مما لم تسمع به فرس النهر حفصة".

فافتعل النادل ابتسامة ترحيب وقال:

لابد ان سيدي يريد طبق الكافيار المخصوص إذاً؟.

نعم هو ذاك... هو ذاك... هو ما تقوله... وراح يفرك راحتيه منتصراً. وفي تلك الاثناء جاءَته احداهن يسبقها عطرها ودلالها، فوقع

في غرامها فوراً. واجهز على نصف ما في محفظته ثمناً لمشروبها المفضل...

ولم تلبث طلائع طابور النُدُل ان بدأت تتوافد، وراحوا يرتبون الفوط والكؤوس والسكاكين والشوك و... حبة بندورة مقطعة على شكل زهرة الاقحوان في الطبق الاول، وبضع حبات زيتون في الطبق الثاني، وشرحة خيار في الثالث، وفي الرابع نصف ليمونه وقليل من البطاطا المهروسه. واخيراً جيء بالطبق الرئيسي على صينية فضيّة مغطاة بناقوس يتسع لرأس ثور مطبوخ، ووضعوه باحتفاء خاص ليستقر في منتصف المائده.

وعندما رفعوا الناقوس وجد نفسه امام خَسّةٍ كبيرة منزوعة اللب، تتوزع اوراقها الخارجية على شكل مروحة وقد استقر في منتصفها في مكان اللب ملء ملعقة من حبيبات سوداء اشبه ما تكون بفضلات بطن فأر مسهول.

تشمّمها فصدمته رائحة زيت السمك المقززه. تذوقها بطرف اصبعه، فاذا هي مالحة بدرجة ستجعل من القضاء الفوري عليه بسبب الضغط المزمن، امراً مؤكداً.

وكانت سهرته مع الحسناء قد توترت، وسرعان ما انتهت إلى الصورة التقريبية التالية.

"حقاً انك عجوز قليل الحياء". واردفت وهي تنفض رماد سيجارتها في حجره.. كنت اظن ان الوقار والحياء من طبيعة الشيوخ حتى رأيتك. اذهب يا حبيبي وابحث لك عن عجوز خرتيتة تفلّي لك حزمة القش التي فوق رأسك من الصئبان.

وعندما خرج من مغامرته قبيل منتصف الليل، لم يكن قد تبقى في محفظته سوى بضعة قروش. وكان جائعاً. فعرج على بائع فلافل واشترى عدة اقراص حشاها في رغيف، وراح يقضمه متمهلاً لاهثاً مقطوع الانفاس في طريقه إلى البيت ماشياً.

ومع ذلك، فقد استقر في يقينه ان يعيش بقية الشهر ما يسمونه "حياة رومانسية" كامله. "وماذا في ذلك" قال في خواره في نفسه. ما الذي سيحدث لو قطعوا عنا الكهرباء غداً؟! فليفعلوا... ليقطعوها... فذلك ادعى للابتهاج اصلاً... سنواصل السهر على ضوء الشموع. وساجعل الخرتيتة تفلي رأسي من البراغيث...

وقــت

هكذا ينفتح الوقت.

مثل تفاحة أخيرة فاسدة. في قاع الصندوق.

مثـل حـشاشة العليـل المعلقـة بـساعة الوقـت فـوق رأس سريـر المرض..

وحتى عندما ننتهي، ويذهب كلٌّ في حال سبيله، تظل الوشوشات تجر ذيولها.. وتدب في ارجاء المكان.

هذا من جهه.

ومن جهة أخرى فمن يجرؤ، بعد كل هذا الـذي جـرى، ان يقـول للوحات التقويم: انت كاذبه!!

من سيقوم بعدها بتنظيم مـرور الأيـام، وتوزيعهـا عـلى المفـارق، ولملمة ما تساقط منها على جوانب الطرقات!!

وهكذا يستمر التواطؤ.

فلا حنكتنا المعروفه تسعفنا في مراوغة اللعنة،

ولا افعوان الضمير بصافي المزاج لنغريه بالاخلاد إلى السكينة..

دلوني اذاً على حكيم ـ غير ساعة الرمـل ـ يمكنـه ان يفتينـي في هـذه المسأله.



صيحة

كانوا يسلّونه باشياء غير معقولة. وحكايات لم تحدث. حكايات من صنع الخيال لا يعرف من اين يأتون بها. لا يعرف حقاً.

فهم غالباً، ودائماً، يقولون له تلك الاشياء الصغيرة التي لا يستسيغها.

ينبشون في حصيلة جعبتهم التي لا تنضب مثلما تنبش بطرف عصاك في التراب امام مقدم حذائك، ويواصلون تسليته بهذه الطريقة.

"ماذا تظن اذاً"؟. يقول أحدهم. "انها نفس الفكرة البارعة مع تعديل طفيف.." يقول الآخر..

اما وصفة كبير الطهاة المألوفة لحساء ارجل الكابوريا من فصيلة "ابو جنيب"، فهي من اختصاص خبير التسويق المنتدب. ذلك الذي إلى جانب لحيته الحمراء الجميله، وطوله الفارع، يملك شهادة مزوّرة، ويستطيع ان يمطّ حكاياته مثلما تفعل مع شريط مطاطي، وخصوصاً

عندما يتعلق الامر بخدمات الدرجة السياحية الممتـازه، ناهيـك عـن ميزات الدرجة الأولى التي يفضلها الآخرون الذين لم يكونوا بدورهم أقل وسامة ولا أقل ظرفاً. وكانت أفواههم الضاحكة تتسع للدجاجة بريشها أيضاً.

لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى التردد في سرد الحكاية، نفس الحكايـة، أو حكاية أخرى شبيهة غير ذات قيمة ليشدّوا انتباهه إليهم.

"من أين يأتون بكل هذا"؟ كان يقول لنفسه: "كيف"؟

ومن أين؟

وكان يقول لنفسه ايضاً "لا شيء اكثر صعوبة عـلى الابـتلاع مـن هذا.. لا شيء..".. ولكنه كان دائماً وأبداً يواصل الابتسام، ويوزعـه بالتساوي بينهم.. مـا اكـذب الابتـسام في الوجـه مبـاشرة. "منتهـى الظروف وايم الحق... منتهى الظرف" "تباً كيف تفعلون كل هذا إذاً؟ كيف تفعلونه؟ وكان يبتـسم في وجـوههم واحـداً فواحـداً ويتـصنع الانصات محاولاً ان يظهر لهم انه اكثر اهتماماً مما يبدوعليه في الواقع.

ويوماً بعد يوم، يوماً بعد يوم، ودائماً، كانوا يواصـلون حكايـاتهم

الصغيرة تلك دون ان يستطيع شيئاً... اذ ليس في الحسبان ان يهرب او يطير او ان يصيح في وجوههم ان يخرسوا.

وبدلاً من ذلك، كان ينسل من ذلك المكان المكتظ بالناس والاضواء والزيف والاطعمه.. ينسل من ذلك المكان المنحط بالذات، مستأذناً بلطف، مخلصاً نفسه من زحمة المقاعد والاكتاف والنظرات وقرقعة الملاعق، ويسير بين الاضواء متمهلاً، وبكل الثقة الواجبة يخرج إلى العتمة متحسساً طريقة إلى ان يصل إلى مكانه القصي المعتاد عند شاطيء البحر.

ومن هناك،

من حيث العتمة التامة:

كان يطلق صحية هائلة تملأ الليل...



ليلى والذئب

بعد الفضيحة المجلجلة التي حدثت للذئب في قصته مع ليلى، قرر الاعتزال واحالة نفسه إلى التقاعد!.

ولكن القصاصين والحكائين والجدات وسمار الشتاء والساهرين على النظام العام، هالهم الامر.

ورأوا في ذلك خروجاً سافراً على النص. وانتهاكاً فاضحاً لبنود العقد.

وسرعان ما عمّت البلبلة، وكثر اللغط واحتدم الجدل بين المؤيدين لما تقرّه الاعراف والمعارضين لما تجيزه المواضعات.

فمن قائلٍ ان المسأله برمتها تقوم اساساً على الثقة المتبادلة في لعب الادوار، إلى قائل ان ذئبية الذئب هي في حقيقتها امتياز وليست نقيصة.

وفي غمرة انشغال الجميع بمقارعة الحجج بالبراهين، وملاحاة الدلائل بالاسانيد، نسوا امر الجدّة نهائياً..

المراقبون المحايدون وحدهم هم الذين ادركوا - ومنذ البداية - ان جدّة ليلى قد ماتت في سريرها دون ان يصيبها خَدش... تماماً مثلما يموت البعير...



ملاحقة

كنت أَجدُّ في أثره. اترسّمُ خطاه، والاحقه.

اطابق اقدامي على آثار اقدامه مثلما ترفع طَبَقاً عن طبق.

كنت مأخوذاً بحمّى الملاحقه.

وكلما تقاصرت المسافة فيما بيننا،

ازدادت مخاوفي من لحظة ادراكه.



عاصفة

عندما داهمتنا العاصفة في عرض البحر، وتلاطم الموج، وبدأ ذلك النداء العميق الآتي من قاع البحر يطرق ابواب افئدتنا؛ شمل الرعب الجميع.

فاخلدوا إلى الخوف.

انه الغرق...

عندها تمالكت نفسي للحظات، وساورتني الظنون بان المحنة الهابطة فوق رؤوس الجميع كفيلة بتقارب القلوب..

تطهيرها.. وتوحيدها.. وَلمُّ شملها..

وآهٍ كم كنت مخطئاً...

فقد تبين لي ان نفسي نفسها، نفسي المتوحدة الوحيدة، قد تطايرت شظايا وتوزعت على اكثر من صعيد...

لحظات هاربة

في مشاع الوقت، سويعات قليلة لي وحدي.

لا يعلم بها أحد.

اسرقها خلسةً، واكنزها في صندوق اشيائي كقصاصة مجتزأة من دفاتر شتاء العمر.

لحات صغيرة هاربة. اطلقها كلما جَن الليل وغفلت العيون.

في الليل، ألملم شظايا نفسي من اقفاص الاتهام، افتح صندوقي واطلقها.

فترفرف كعصفور نجا من الكارثة.

أتأملها، واحنو عليها، واسكن فيها....

تلك هي ساعات فراغي التي ترعبني فكرة سطو الآخرين عليها...

فــرار

مثلما يحدث في كل مرّة يزورهم بمناسبة العيـد، إعتـذر هـذه المـرة ايضاً عن تناول قطعة الشيكولاته المقـرره. رفـح راحـة يـده برزانـة.. شكراً.

ولكنهم، ومثلما كان يحدث في كل مـرّه، ألحّـوا عليـه قـائلين: خـذ واحدة. خذ ولو واحدة فقط..

وكان دائماً يتنـاول واحـدة مـن بـاب الواجـب ويـضعها في جيبـه حسب الاصول، وحتى لا يتسبب باي ضيق..

وكانوا بدورهم يقابلون مجاملته اللطيفة بابتسامة امتنان لا تتعـدى حدود اللياقة، ثم ينسحبون إلى الداخل باستحياء..

وفيما تصل اليه همـساتهم وهمهماتهـم وهـم يتبـاحثون وراء البـاب الموارب، يشبك اصابع يديه ويروح يتأمل ستارة الشباك القصيرة ذات القماش المـشجر بالوانهـا الفاقعـة، او يحـدق، دون تعمّـد، في مزهريـة

الزاوية التي لا تنقصها الازهار البلاستيكية بخضرة اوراقها المحاطة بالشكوك والمنسّقة بشيء غير يسير من العناية.

وبعد غياب هنيهات لاتكفي لاثارة الانزعاج او التساؤل، يعاودون الظهور واحداً فواحداً وقد اكتملت زينتهم بالملابس المخصصة لاستقبال الضيوف حيث يبدأون بالسؤال عن الحال قبل ان يواصلوا استكمال ما انقطع من حديث كانوا بدأوه في العيد الفائت، مكررين بين الحين والحين، نفس كلمات الترحيب، وبذات الوتيره التي ظلت دائماً تدفعه إلى التفكير بالفرار....



خــروج

كنت في سبيلي إلى الخروج من البيت.

تناولت النظارة، وسلـسلة المفـاتيح، وقمـت بطائفـة الاجـراءات الاحترازية المعتاده:

اغلفت النوافذ.

وتفقدت صنبور الغاز.

واطفأت المصابيح.

ثم اغلقت الباب في وجه العالم،

وغُصت في داخلي.

* * *

واستكمالاً لحديثنا السابق.

هل لا بد للخروج إلا أن يكون على شاكلة قصة عليّ، عندما خرج عليه معاوية؟؟

حالة نادرة

هفواته صغيرة. طفولية.

ولا تؤذي ذبابة.

ويرضى بالقليل من اقل القليل.

حتى، بالتفاتة عتب عابره.

ولكنه..

ويا لضيق الصدور،

لم يجد ولو لمرّة واحدة، مرّة واحدة فقط، من يستطيع ان يغض الطرف عن طيش فراشة حطّت خطأ على كتفه الايسر..

ولهذا،

ولهذا بالذات، قرر ارتكاب الخطأ الكبير...

ان يواصل العيش بنفس هفواته الصغيرة والطفولية

والتي لا تؤذي ذبابة..

وحتى لو ادى ذلك إلى امتشاق السلاح!!.

ما هكذا تخاض الحروب

تواصلت مناورات الربان طوال ساعات ما قبل الظهيرة قبل ان ينجح في ترويض العبّارة العملاقة، ويجعلها تصطف بامان إلى جانب رصيف الميناء. فتهللت بعض الوجوه في الصفوف الاولى، ودبّ النشاط في جميع المتزاحمين على الدَوْر وراحوا يتحركون كخلية النحل.

وسرعان ما أخذت الرافعات تجأر مطلقة العنان للبكرات التي تحررت وبدأت دورانها البطيء ساحبة حبال الحديد المجدول، فيما راحت البوابة الحديدية العملاقة تتهادى باطنانها الاربعة هابطة نحو الرصيف بتثاقل، ولكن بثبات، قبل ان تحط باطنانها الاربعة على حافة الرصيف الاسمنتي.

ولم تكن العبارة التي اصطفت لتوها تتسع لاكثر من عشرين شاحنة وبضع سيارات صغيرة. مع ذلك تهلّلت وجوه الذين قدر لهم ان يكونوا في بداية الطابور. إذ أن هؤلاء سوف يكونون أول من

يغادرا الجزيرة التي صدر الامر باخلائها من السكان فوراً بدعوى استحالة الدفاع عنها. وكان طابور السيارات المنتظرة يعد بالمئات ويمتد من فم الميناء إلى عمق ميل داخل الجزيرة. طابور طويل، من السيارات المصطفة تنتظر دورها، لا تستطيع العين ان ترى آخره.

وكان صوت القصف المتواصل ما يزال يجيء نائياً كهزيم الرعد القصي منذ الصباح حيث يحتشد مئات الجنود بمعداتهم عند الطرف الاقصى للجزيرة.

ووصلت دفعة جديدة من المدنيين الذين سارعوا إلى الاخلاء فوراً، وقيل لهم مثلما قيل لسابقيهم، بان الرحلة القادمة والتي تليها مكتملتا العدد، وان عليهم الانتظار للرحلة السادسة او السابعة ربما غداً او بعد غد. فظروف الحرب، والاخلاء، وحالة البحر، إلى جانب وجود عبارة واحدة فقط تجعل من المستحيل التكهن بشيء.

وكان امر اخلاء الجزيرة قد صدر قبل ثلاثة ايام. ولم يصدق الناس في البداية. واعتبروا ان المسألة واحدة جديدة من تلك الاشاعات التي لا تني تتوالد، الجديدة منها عن القديمة، مع كل ساعة من ساعات ماقبل اجتياح الجزيرة عسكرياً.

ولكن الامر جاء حازماً وقاطعاً، ولم يترك مجالاً للتأويل عندما راحت عربة جيب عسكرية تجول في الشوارع معلنه انه يجب على الجميع اخلال الجزيرة فوراً.

"لا نملك التجهيزات ولا التغطية الجوية اللازمة للدفاع عن المدنيين"

وعقب ذلك بدأت عربات الجيش تتوافد من انحاء الجزيرة إلى الميناء. وبدأت العبارة رحلاتها المكوكية بين الجزيرة والبر والآخر. فصات الامور تأخذ منحنى جدياً ينذر بالخطر.

فتدافع الناس إلى الميناء للنجاة بارواحهم. وكان واضحاً ان الجبهة في هذا القطاع آخذة بالانهيار.

وهكذا امتلأ الميناء عن آخره بالناس المنتظرين دورهم في الاخلاء. وكنت اقف بين الجموع التي كانت تتابع ما يجري. فقدّرت انه ما كان لأي شيء آخر ان يقوم بدور الجسر بمثل كفاءَة هذه البوابة الجبارة باطنائها الاربعة. فما ان امتدت هذه البوابة حتى انكشف باطن السفينة شاسعاً ممتداً. ومع ذلك ظل التذمّر ماثلاً على بعض الوجوه، لان العبّارة لا تتسع لاكثر من عشرين شاحنة في حين ان الطابور المتنظر

يعد بالمئات: سيارات عسكرية ومدرعات وناقلات جنود وشاحنات مدنية ممتلئة بالاثاث المكروم كيفما اتفق، وعربات محزومة بالحبال، وسيارات صغيرة تعذر اغلاق صناديقها الخلفية على ما حشي فيها من رزم وحقائب، عربات أطفال، ومقطورات محشوّة عن آخرها، واناس بالآلاف من جميع الاعمار لا توصف جلبتهم. تخالهم سكارى وما هم بسكارى، يتحركون متزاحمين كانهم في يوم الحشر.

وكان قائد الميناء، وهو برتبة رائد، قد تقدم محاطاً بمجموعة من الضباط الاقل رتبة، وراح يتفحص قدرة الجسر على احتمال المدرعات عندما جاءَه مجند شاب يطلب الاذن بانزال الجرحى أولاً. وكان عدد منهم قد وصل بالفعل على محفّات وضعوها بشكل مؤقت في صفوف في ظلال الشاحنات.

كان الالم يعتصر وجوه الكثيرين منهم. ولكن احداً منهم لم يكن يطلق اي انين جرياً على العادة التي الفناها طويلاً في روايات الحرب والبطولة. وكانت الرواية بكل بساطة تجري احداثاً حية امام انظارنا.. وكنّا شبه ذاهلين.

ووضع احدهم سيجارة في فم أحد الجرحى الذي كان يسرد

حكاية اصابته لجماعة من الجنود فيما أخذت احدى النساء تولول عندما انزلقت قدم صغيرها وسقط في الماء. فقفز احد الجنود لانقاذه.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ووصلت الحرارة ذروتها وقاربت الخامسة والاربعين على مقياس سيليزيوس.

ولكن الانفعال والترقب كانا على درجة من الشدّة، جعلت الحرارة شيئاً ثانوياً. وعلى نحو مماثل كان الاحساس بالجوع والعطش. فقد مضى على بعض الشاحنات ثلاثة ايام واصحابها يرابطون حولها دون طعام ينتظرون دورهم في العبور. وكان السائقون ينامون تحت شاحناتهم وقد تعرّى معظمهم الاّ مما يستر العورة. اما النساء والاطفال فقد تناثروا هنا وهناك فيما انحشر آخرون في الزوايا والاركان الظليلة يتأملون بصبر مرير فيما آلت اليه الاوضاع من سوء وفوضى تقوّض معها كل شيء..

بعض المحظوظين كانوا يحتلون ظلال الأشجار القليلة المتناثرة عند مدخل الميناء وعلى جانبي الطريق ينتظرون دورهم ايضاً. وهنا وهناك كانت توقد نار صغيرة لاعداد الشاي، او لعمل وجبة صغيرة. ثم وصلت قافلة أخرى وراحت تصطف في طابور ثان مواز عندما

استشاط أحد الجنود غضباً وافرغ صلية من الرصاص في العجلة الاماميه لاولى الشاحنات الجديدة فانكفأت على مقدمتها واغلقت الطريق على الطابور الجديد. وحدثت فوضى تخللها تبادل اللكمات والتماسك بالايدي، وعلت السّباب بين السائقين والجنود انهاها أحد الضباط، وكان ممتلئاً قصير القامه، عندما شهر مسدسه وراح يطلق النار في الهواء وبين ارجل المتشاجرين.

واخيراً انطلقت صافرة العبارة ايذاناً ببدء العبور. فهدرت محركات الشاحنات الاولى في الطابور وراحت الاولى منها تتهادى بهبوط بطيء تلاه جئير يصم الاذان عندما بدأت بالصعود على المنزلق، وسرعان ما عبرت الجسر الذي يشكل مع حافة المرسى منزلقاً منفرج الزاوية لتستقرفي بطن السفينة. وعندما جاء دور الشاحنة الثانية فقد سائقها السيطرة عليها، فانزلقت، ووثبت كالارنب، ثم راحت تتأرجح بين منزلقي الصعود والهبوط كأنها لولب السرير وسرعان ما انشطرت إلى نصفين. فاسقط في ايدي الجميع. فقد بدا واضحاً ان ساعة أخرى ستضيع هباءً في سحبها من فم العبارة.. فاطفأ سائقو الشاحنات محركاتهم وهبطوا منها حانقين لاعنين يتصببون عرقاً وغضباً. وكان الجميع يتحسبون من عودة الجَزر إلى ادنى مستواه. لان

معنى ذلك ضياع ست ساعات أخرى في انتظار المد. فهـذا النـوع مـن العبـارات لا يـستطيع الابحـار الا عـلى منـسوب ميـاه المـد المتوسـط والاعلى... فتكهرب الجو من جديـد وصـارت الاسـئلة والاجابـات اكثر اقتضاباً وتوتراً عندما حدث انفجار ضخم تطايرت معـه احـدى شاحنات المؤخره. وجاء من يفيـد بتفجـير خـزان احـدى الـشاحنات نتيجة عقب سيجارة القاه احد الجنود حيث البنزين المتـسرب، فتطـاير هو نفسه مع الشظايا.. وكانت فوضى رهيبة.

وفي ركن غير بعيد كان ثمة عجوز يقتعد حجزاً ويرقـب الفـوضى منذ الصباح ويهز رأسه. ويغمغم بشيء لا يتجاوز لحيته.

اثار منظره فضولي ولكـن الدبابـة التـي بـدأت تـسحب الـشاحنة المشطورة سرقت انتباهي. وعندما حانت مني التفاتـة ثانيـة إلى حيـث كان يجلس العجوز لم اجده هناك.

وفي حوالي الساعة الثالثة بدأ الجزر يتراجع بتياره نحو اعالي البحار فرأيت شيئاً طافياً يسافر بعيداً مع الماء، وكان يشبه جثة العجوز.. وفيما أنا الاحقه بنظري خيّل اليّ انه كان يقول..

"ما هكذا تخاض الحروب.. ليس هكذا ابداً..."

الخباز العبقري

مهنتي شديدة الندرة...

تعثر بالكاد على متخصص واحدٍ فيها من بين كل مئة ألف طالب عمل.

وحتى لا تذهبن بكم الظنون بعيداً، فهي مهنة تتعلق بالخبز.. الخبز اللذيذ الذي يخرج من بين يدي الخباز ساخناً محمرّاً.

وهي بالتحديد ترتبط بدرجة احمرار سطح الرغيف.

ويخطيء من يعتقد ان الرغيف كفيل وحده بان يحمّر من تلقاء نفسه وبمجرد وضعه في بيت النار.

والمتسرعون في اطلاق الاحكام، هم اكثر الناس عرضة للانزلاق في سذاجة مثل هذا الاعتقاد الخاطيء. وهذا اعتقاد نعدّه، نحن الخبراء، مقارباً لحدود الاثم. والمسألة على هذا الوجه تتطلب كثيراً من النزاهة العلمية لفهمها وتقديرها حق قدرها.

ومع ذلك، فنحن غالباً ما نتسامح مع الاناس العاديين ممن يمرون بهذه المسألة مرورالكرام. لاننا نادراً ما نعثر بين صفوفهم من يميّز بين رغيف ورغيف لانهم يجهلون سر المهنه.

وهنا بالضبط تتجلى عبقرية الصنعة.. اعني استحالة ادراك الآخرين لاهمية ما تعمل.

المهم. ها هي الفرصة التي انتظرتها طويلاً قد سنحت اخيراً. واصبحت الوظيفة في متناول يدي.

فهناك من يطلب مهنتي، ويقدرها حق قدرها.

فقد عثرت بالامس على اعلان في احدى الصحف يطلب موظفاً يحمل مواصفات مهنتي النادرة.

وكنت على ثقة مطلقة بان احداً غيري لن يتقدم لهذه الوظيفة. وحتى لو حدث، وتقدم احد المتطفلين على المهنه، فلن يكون إلى جانب خبرتي اكثر من قطرة في بحر.

فانا، يا سادتي لست خبيراً في الكيمياء العضوية فقط، بل ومتخصص في علم الخمائر والكحولات. واستطيع التنبؤ بدرجات

مراحل التحلل النشوي في العجين دقيق بدقيقه. فبالتـدريب الطويـل والخبرة المعّمقة – صرت قادراً على ان اتشوّف فعل الخمائر التي لا ترى الا تحت المجهر، اراه بعين الحدس كمن يراه بالعين المجردّه بعد مئـات التجارب التي تابعتها تحت المجهـر.. احـدس بلحظـة تحلـل الاغلفـة النشويه، كانني اراه رأى العين، وارى تكسر روابـط جزيئـات الـسكر وتحولها إلى كحول لحظة بلحظة.. والإّ فلماذا اجريـت آلاف التجـارب لتحديد المدى الحراري ودرجة الرطوبةا المناسبتين للوصـول إلى اكثـر درجات الاتزان الحمضي ثباتاً في عمليات التخمر؟. ايكون هذا ضربـاً من العبث لا طائل من ورائه؟. استطيع بلمسة من طـرف اصـبعي ان اقدر نسبة الكحول في قطعة العجين، حتى دون اللجوء لحاسة الشم.

وكنت قد اتجهت لهذا التخصص بعدما تبين لي ان المهارات اليدوية قد صارت شيئاً بالياً من تراث الماضي. وان التكنولوجيا صارت تهـدد بتحويل المهارات الانسانية إلى قدرات ومهارات غير ذات قيمه.

لهذا بالذات، تعمدت الاتجاه إلى هذا التخصص. وانا الآن على ثقة تامه بانك ان وجدت في عالمنا العربي ثلاثة يحملـون هـذا التخـصص، فانك عاجز عن العثور على الرابع بكل تأكيد.

فعندما عثرت على الاعلان كنت واثقاً من الحصول على هذه الوظيفة. لانني ادرك ببساطة ان القيمة الفعلية لاية مهارة انسانية تتحدد بمقدار ما وراءَها من جهد واخلاص. ومن جانبي بذلت الكثير، واستطيع في هذا الباب ان ازعم، مرتاح الضمير، بانني امثل في هذا المجال اكاديمية بحالها... ولكن ماذا نقول للتاريخ الذي لم ينصف الخبازين العباقرة؟!

هذا عن سجلّي المهني..

اما تاريخي الوظيفي، فهو خال تماماً من اية شائية. وليس فيه ما يحول دون حصولي على الوظيفة.

فعندما خسرت وظيفتي السابقة في مصنع التقطير، لم يحدث ذلك بسبب الاهمال، او نقص الخبرة، بل بسبب تهمة كيدية حيكت ضدي. او دعنا نقول: ضد عبقريتي المهنية.

كنت اعمل مراقباً لثبات نسبة الكحول في معمل التقطير، عندما اكتشفت تركيبة نادرة تجعل من المشروب الوطني وصفة عالمية.

واردت تجربتها على عدد من الاصدقاء المشهود لهم بالتذوق. وهؤلاء دعوا معهم كوكبة من اصدقائهم بين المتذوقين الخلّص،

وأولئك بدورهم اصطحبوا معهم نخبة من الظرفاء، تجمعوا جميعاً في ضيافتي في قبو التخمير.

وكانت ليلة مشهودة، تستحق الاحتفال. اختلط فيها الحابل بالنابل كما يقولون. وامتلأ القبو بالزوار المتلهفين على تذوق خلطتي السرية الجديدة. وفي غمرة فوضى الاحتفال، بالغ البعض في التذوق قليلاً وظلوا يواصلون الثناء عليّ ويشيدون بانجازي المتميز، حتى افرغوا برميلين كاملين كنت اعددتها كعيينة.

كانت مبادرة بريئة حيال هؤلاء المتذوقين البرره.

ولكن بعض اصحاب الاعمال، يفتقرون إلى موهبة ادراك تلك اللمسة الجمالية الخالصة فيما هو فردي ومتميز... ففصلوني.

فصلوني زاعمين بأن ما لا يقل عن نصف العاطلين عن العمل في المدينة ممن اسموهم بـ"سفهاء المدينة" ظلوا يواصلون الترنح حول المصنع ليومين كاملين بسببي!! مع أن كلَّ ما حدث هو أنني دعوت نفراً من الابرار لتذوق الخلطة على سبيل تحليل النتائج كما تتطلبها رصانة التجربة وأمانة البحث!

وقد تعلمت من ذلك درساً. وقررت بعدها أن أسلك في أية مهنة

جديدة سبيلاً لا سبيل فيه إلى الشبهة ولا مجال فيه للترنحّ... فمن غير المعقول تلفيق تهمة تعاطي الخبز او التحريض على تعاطيه ضد أحد مثلما حدث في ليلة القبو تلك.

المهم. في اليوم الموعود؛ ذهبت إلى المقابلة متبأبطا شهاداتي الاكاديمية واوراق ابحاثي، ونبذة عن انجازاتي، وكل الوثائق المطلوبة.

ومثلما توقعت، لم اجد من ينافسني على تلك الوظيفة. اللهم الاّ صبيّة لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد. بدت هادئة وواثقة من نفسها وتنتظر الحصول على الوظيفة مثلي.

وجرى بيننا حديث عابر اثناء الانتظار، فهمت منه انها على درجة محزنة من البراءة والسذاجة والجهل بموضوع الوظيفة.

قالت انها تعلمت كيف تعجن العجين على يدي امها المتوفاه. وتعلمت كيف تنضج الخبز وتحمّره جرياً على عادة الفقراء في طوابين القريه. وفهمت منها انهم قد هجروا القرية إلى المدينة لضيق ذات اليد. وانها في سبيلها لتجربة حظها في الحياة لمساعدة والدها وشقيقاتها الثلاث. فالحياة، كما قالت، صارت شاقّة، وما يضمره لنا المستقبل لم

يعد شيئاً موثوقاً يا سيدي. قالت. ولا بد للواحدة منا أن تقدم شيئاً يسدُّ الرمق. فالعبء على كاهل والدي المريض اكبر من ان يطاق... ثم ان الفقر يا سيدي لا يفرق بين ذكر وانثى..

كانت صريحة كالجوع، وواضحة كالوجع.

وعندما دخلنا غرفة الاختبار، واعطونا ورقة الاسئلة، تركونا نجيب بحرّيتنا التامة دون رقيب باعتبارنا متنافسين لا مجال لان يساعد أحدنا الآخر.

واثناء كتابتي لمعادلات التخمر وموازنتها، حانت مني التفاتة نحوها فوجدتها تتهجّى الكلمات... وتبكي.

اصابني ما يشبه الاعصار. ووجدتني ادفع اليها ورقة الاجابات الكاملة ثم أخذت ورقتها البيضاء، وكتبت عليها اسمي. ثم دونت في اسفلها هذه العباره:

لا اعرف اية اجابة لاسئلتكم السخيفة هذه سوى اجابة واحدة وهي انني لا أريد هذه الوظيفة...

ثم طويت الورقة وخرجت بها إلى المسؤول.

وهناك قذفتها في وجهه وغادرت دون ان انبس ببنت شفه...

مساءات مسروقة

أيام كانت التأملات قطاعاً عاماً، وكانت الاحلام مشاعاً للجميع؛ كنت قادراً على الحلم.

اطلق العنان لهواجسي دون عوائق تذكر. وانشر ضلالاتي وطيشي باتساع الافق.

كنت افعل هذاواكثر منه.

كنت ادهش حتى ينعقد لساني: اغير على السنابل مع العصافير، واجفل مع رف حجل داهمه الصياد، وانهمر غناءً مع المطر، واجوس غير آبةٍ مع الزمهرير، ويشتدحنقي على بلادة الحصة الثانية من يوم الخميس..

لم يكن لدهشتي حدود.

كنت اشد طيشاً من ماء الجدول، واكثر غروراً من نخلة.

كانـت الارض كلهـا لي: بنهاراتهـا وغيومهـا: بهـذرها المقـدس واماسيّها المشتهاة ووعودها الموفورة المؤجلة ابداً.

ليتفضل احدكم اذن ويعيـد اليّ مساءاتي التـي نسيتها بيـئكم. لا تقولـوا انكـم انفقتموهـا في حلكـم وترحـالكم... حججكـم هـذه مرفوضه وباطله. ولا طائل من ورائها.

تعالوا اذن نحتكم امام ازهار الباميا ء.تلك التي انتهك يوسف ابـو لوز سرها، فقتلته..

اغـواه الفـضول، فاوغـل في الرحيـل وراء اسرارهـا في مجاهيـل لم تطأها قدم قط. فضاع هناك. ومات عطشاً مثـل كـل الـذين تخطفـتهم جنيات وادي عبقر وكان ما يزال ممدداً هناك، عندما جرّده اللـصوص وقطاع الطرق من كل شيء..

لصوص لا يملكون كرامة اللصوص. أتوا على الاخضر واليابس، وباعوه في سوق الباله: الصور، والكلمات، والعبارات، والنقاط، ومـا بين السطور. لصوص لا يفرقون بين الحجر الساقط والحجر الكريـم.

ساشكوهم للغروب الحزين ليقول كلمته فيهم!!

ليس في مساءاتي الحاليّة شيء من زهور الباميا، ولكن كل مـا فيهـا

قابل للسرقة: النعاس الرقراق، ودبيب الرحمة، وهمس البوح، وضيق ذات اليد، واشياء اخرى من قبيل التمائم والشموع ورسائل اثيرة حال لونها لطول العهد. ومنحوتة خشبية لطائر يسمونه الحلاج أُلقي عليه التحية كل مساء فيظل يرقبني بعينيه القلقتين حتى انام.

هذا كل ما في جعبتي يا سيدي القاضي... أريد مساءَاتي. اريدها حتى الثمالة. بشمسها الغاربة، ورعاتها المُتْعَبين، وقطعانها المروّحة، باجراسها واغنامها وروائحها وانين ناياتها.

اريدها باذان المغرب، وصلاة جدي. بتسبيح المروحين وتوحيدهم وحوقلاتهم واحزانهم الرقيقة كالزغب.

اريد مساءاتي بنسائمها وسحبها الراحلة شرقاً وشمسها المدلاّة كبرتقالة الافق.. واريد خصوصاً رفوف البلشون المهاجرة جنوباً، والسنونوات، ورفوف الزاغ والسمان، وشقشقة الشنانير في كورال انشاد ما قبل المغيب.

واريد دخان بيوت الشعر البعيدة على مرمى البصر كحلم جميل يوشك على الانتهاء. واريد عواء بنات آوى، ورائحة قتار الطبخ، وخبز الطابون، وَلَمّة ما قبل العشاء.

اريد هدأة طيور الرخم التي حطت على زيتونة متطرفة عمرها الف عام حيث جثمت تريد المبيت. واريد سلال جامعات الفطر، واللوف، والعكوب والزّعتر، ونجمة الزهرة التي بزغت تواً عند آخر اذيال ثوب الشمس تستقبل الحاطبات وترحب بعودتهن. اريد ثغاء السِّخال، ونداء الامهات، وجلبة الاولاد. أريد بركة حليب المساء ومذاقه ايضاً. واريد خرير الجدول، وحفيف الاوراق، ولمّة السمار، وأُنس الحكايات، ونار الغروب. أريد تسبيح الملائكة، وخشوع الاشجار، ووحشة الوديان، ورهبة القبور، وانفضاض السامر وارتحال الانيس وتصدّع القلوب، وخوف المجهول.

واريد ضمة الفيجن على باب بيتنا ليلة العيد.

اريد الغروب والمساء والمغيب مرتبة ومسفوطة فوق بعضها: صفحةً صفحة وورقة ورقة مثلما كنزتها وائتمنتكم عليها.

فاذا كنت لا تقبل الاّ بالحقائق الملموسة لمس اليد يا سيدي القاضي، وترفض كل ما ليس قطعيّ الدلالة، فلمن نتوجه بشهقاتنا، وهمساتنا، وارتجاف اصابعنا، ورعشات شفاهنا، وخفقات قلوبنا؟؟. هاء؟ قل لي.. لِـمَنْ؟؟

لماذا لا يُستدعى الشهود، ويؤتى بالخافية، وتُبلى السرائر، ويستنطق الضمير، وتستوفى الديون؟؟

الا ترى يا سيدي انه قد ينتهي كل الشعر، وينفذ كـل الكـلام دون ان ينتقص ذلك من صمت الغروب قد أنمله؟.

اريد مساءَاتي يا سيدي القاضي.

فان لم تنصفني، ساستعدي عليك الحظ ليـضعك في غـير زمانـك، ويرميك بين من لا يعرفون قـدرك ولا يميـزون بـين الحجـر الـساقط والحجر الكريم...

وكفاك بذلك جحّيماً...



المربع الأول

الذين اعتادوا ان يتربصوا بالناس الدوائر؛

فاتهم أمرٌ واحد.

انهم منتهون إلى نفس المربوع الاول...

أعني ليس مربعاً تماماً... لانه أقرب شبهاً بالمستطيل.

أم تظنون ان للقبور اشكالاً أخرى!!

* * *

حكمةٌ ليس فيها شيء من الجِدّة سوى انها قديمة جداً..



الأصابع الباكية

ليسوا هنا.

اماكنهم فارغة. بارده. مرتبّةَ..

بارده ومرتبة كأسّرة المستشفى...

وهم ليسوا هنا.

كانت تدور في انحاء البيت بجسدها النحيل واعوامها الستين تبحث عن اشياء غير محددّه، وتعيد ترتيب اشياء أخرى لم تُمَسّ منذ ان رتبتها آخر مرّه. منذ شهور ربما. وهي في سائر الاركان تهمس بكلمات صغيرة، لطيفة، كأنها صادرة عن اصابعها الرقيقة. كلمات متسامحة، وغير متعمده، تطفو على شفتيها وتصعد متمهلة من اعماقها كنومةٍ مديدة مريحة.. تخاطبهم واحداً واحداً.. تهشّ لهم. وتلبيّ بقدر الامكان، طلباتهم التي لا تتوقف. وتزيل عن ملابسهم تلك الاشياء العالقة التي لا تعرف من اين يجيئون بها. تزيلها بعناية وهي تؤنبهم

واحداًواحداً وتمسح بكفها على شعرهم مرّة ومرّة ومرّة... ما اجملكم. ثم تروح تمسح غباراً غير موجود عن هذا الشيء او ذاك متأملة، بين الحين والحين، في وجوههم وصور طفولتهم المعلقة على الجدار.. طفولة بعيدة بعيدة بعيدة.. لكنها هنا... هنا... إلى الاسفل قليلاً... إلى اليسار قليلاً، حيث يضع الطبيب الماهر سماعته فوق حبة القلب... نعم هنا. وعندما ينشرون الفوضى، وتعلو جلبتهم وشيطناتهم، كانت تحذرهم بطريقة جادّه.. نعم تحذرهم. بصريح العبارة. حتى انها لتوبخ احدهم بطريقة بالكاد تبدو فيها الرّقة.

وعندما لم يكونوا يلقون بالاً لتحذيرها، كانت تصيح بهم، نعم تصيح بهم مرّة ومرّة. وعندها تكتشف انهم ليسوا هنا..

فتقول لنفسها مرّة أخرى:

آه كم كبروا..

وكم غادروا...



المثقف العربي

يعاني المثقف العربي من الحصار والمؤامرات والاستلاب وقوى الطغيان.

ويعاني من التمزق القطري والقبلي والفساد.

وسوء الادارة وكم الافواه.

ويعاني من الجهل، والبطالة، وشح الموارد، ونقص المعلومات، ويعاني من التضليل، والتهجير، والمطاردة، والفقر.

فأي كمال يستند اليه انسان لا ينهار امام كل هذه النواقص

حين يتنادى إلى الصمود.



الذئب والحمل

ادرك السأمُ الذئبَ من سلبية الحمل في حكايتهما المعروفة.

فاقترح عليه ـ من باب التسلية وتزجية الوقت ـ ان يتبادلا الادوار.

"لم تكن برامج الفضائيات العربيّة المسليّة قد ظهرت بعد"

اعجبا بالفكرة.

فلبس كل منهما ثياب الآخر.

ووقف الحمل في اعلى الجدول، والذئب في اسفله.

ومأمأ الحمل:

"أنت هناك. لماذا تعكر ماء شربي دائماً"

"لن أدعك تفلت بفعلتك هذه المرّة".

وجاء ثغاؤه ممطوطاً، متخاذلاً، ضعيفاً، أفسد حرارة اللعب.

فاستشاط الذئب غضباً. ووضع حداً لهذه اللعبة السخيفة..

انقضّ عليه...

كل ما سبق لم يعد بذات اهمية لولا شيء واحد:

وهو ان هناك من ما زالوا يسألون:

وماذا حدث بعد ذلك؟؟



الغد الذي ما بعده غد

ذهبتم بعيداً هذه المرّه... بعيداً جداً.

وها هو الوقت قد ادركنا، وآلت الاصوات إلى همهمات معتمه.

توقفوا اذا.

ودعونا نتبادل الادوار.

وليكن ذلك على سبيل المراجعة.ا و تـصحيح الحـساب. وان شـاء احدكم، او بعضكم، او جلكم، فليكن من قبيل الاغتسال مـن جنابـة اساءَة الظنون.

فغزالة الروح السارحة

تلك المشوقة الراعية في اعالي القلب:

قد سئمت مكائد الصيادين

ودناءات كلابهم

وسئمت حتى اجراس الوقت الكاذبة

فهاتوا اسراركم، ووجوهكم، واعذاركم

وهاتوا ملاسناتكم المجلجلة كزعيق الاوز

ولتكن قسمة ضيزى:

عسل للظنون:

وخردل لليقين.

فذلك أدنى للوفاء لذكرى روح الغد الذي صار يجيئنا مرعوباً،

ملفوفاً باكفانه.

وبلا غد...



كـذب

اكفهرت السماء. وراحت جيوش السحب الجرّارة تزحف وتقدح شرراً.

أبرقت. وأرعدت.

ثم خمد كل شيء.

لم ينزل المطر.

معنى ذلك ان الكذب لم يعد حكراً على عالم السياسة!!



طرق للعيش

بعد فراق سنوات وسنوات التقينا...

فسألته عن الاحوال.

فقال: انني اعيش الحياة بالطول والعرض!!

ومع انني جاوزت الخمسين،

فانني على استعداد للمجازفة بالقول بانني لم اعتد على تلك الحياة المزعومة بعد، لكي اعيشها..

ولو حتى بالمواربه.



حل دائم وشامل لمسألة سيزيف

سيزيف، الذي تعرفون؛

والذي كلما اوصل الصخرة إلى قمة الجبل عادت وتدحرجت إلى قعر الوادي،

ما يزال يواجه قدره المكتوب عليه... ويواصل المحاولة بدأب.

العقلاء من أهل الحل والعقد، بادروا إلى الاجتماع في بيت المجني عليه، وأجمعوا أمرهم على أن يتوقف الرجل بصخرته عند منتصف السفح كحلٍّ يرضي كافة الأطراف،

ويغلق ملفّ هذه القضيّة...



المِرجل

كنتُ قد وصلتُ تـوّاً... فمنحـوني بيتـاً بغرفـة واحـدة مـع حمـام ومطبخ ومغسلة في الحوش.

مسكن معـزول عـن العـالم، بـسورٍ عـال، وبوابـة حديديـة تغلـق باحكام.

في البداية؛ بدا مناسباً تماماً لِعَزَب قُدّر له ان يعيش وحيـداً في بلـدة محافظة. وكان يقوم على طول الحوش جدار اصفر بارتفاع ثمانية اقـدام يفصلني عن مسكن آخر مهجور.

ويبدو ان البيتين كانا في الاصل بيتـاً كبـيراً واحـداً؛ ثـمَّ فـصلوهما بجدار مشترك وبوابتين منفصلتّين.

وكان هذا هو النمط السائد من المساكن هناك

وصرت اعود من عملي في الثانية بعد الظهر، فارى الناس مسرعين عائـدين إلى بيـوتهم المحـصّنة، صـامتين لا يلـوون عـلى شيء كـانما

تطاردهم قوى خفيّة مستحكمة. ولكن ذلك لم يمنع بعضهم من ان يرشقني بنظرة تنضح بالشك.

في البداية كان ذلك يضايقني... ولكنني لم البث ان اعتدته. ووطنت النفس على تقبل مثل هذا النمط الصارم من حياة الصحراء القائمة على الشك. حتى انني مع مرور الأيام، صرت اشعر بنوع من الاعتزاز امام تلك النظرات. وما ان اصل إلى مسكني، حتى يستقبلني صمت محكم لا اشد منه وحشة. أجده طافياً في الفناء كانه كان بانتظاري... صمت يزيد كثيراً عن حاجتي إلى الصمت، يفيض من الفضاء، ومن فوق الاسوار، ويغرق المكان بالصمت فالجأ فوراً إلى جهاز الراديو، انيس وحدتي، الذي يصلني بالعالم من وراء هذه الاسوار الخرساء.

في العمل لا تسمع الاّ صوت ارتشاف الشاي وتقليب الاوراق. واحياناً دمدمات مبهمة لا تدري أهي من قبيل الاستحسان ام من باب الانذار. دمدمات ذات نبرة صماء، قاطعة، مقرونة بنظرات خاويّة. واحياناً ناضحة بالشك.. ولا شيء غير ذلك.

كان الصمت يمتد من الليل إلى الليل ومن البيت إلى لعمل.

وكان عزائي الوحيد في هذا المنفى الجهنمي، يتمثل في مرتب نهاية الشهر. اذ كنت اصرف وقتاً طويلاً في عَدّه وتقسيمه ثم جمعه وطرحه، فاعادة عَدّه من جديد.

وكان ذلك بمثابة وعد بحياة مرموزة افتقدها على ارض الواقع. ولكن ذلك لم يكن ليستمر الاّ ليوم او بعض يوم، اعود بعدها إلى الدمدمات والحفيف والارتشاف. اما بقية نهارات ما بعد العمل، فكنت اصرفها مستسلماً لوساوسي في الشمس، عارياً الاّ مما يشير العوره، أشرب الشاي وأدخن بشراهة سجين مؤبد، واقيس طول الحوش وعرضه بالقدم ثم بالمتر ثم بالياردة انثني عليه مرة أخرى اقيسه بالشبر والذراع.

فاكتشف لاول مرّة، ان طول ذراع الانسان يساوي ثلاثة اشبار وثلاثة قراريط. وهي مسألة تشريحية غابت عن دافنشي

وظل هذا الموت يسرق ايامي شهراً وراء شهر، إلى ان كان ذات يوم عندما فوجئت بجلبة في الحوش المجاور وراء الجانب الآخر من الجدار. جلبة صادرة عن عائلة ترفع وتحط وتنادي وتجيب. وفهمت من الكلام المتطاير من الجانب الآخر انها عائلة مغتربة مثلي، جيء بها

لتسكن النصف الاخر من البيت انتابني شعور المسافر في الصحراء، إذ يجد نفسه فجأة على مشارف العمران. فبت تلك الليلة في سعادة غامرة. فها هي أخيراً أسرة غريبة مثلي تجاورني مجاورة الهمس، وتداني النجوى.

اناس من لحم ودم واحاسيس، وبدون نظرات جارحة، يجاورونني مجاورة السبّابة للوسطى، يبثّون حياة دافئة في هذا الموات الشامل. ومن يدري؟ فقد ترتب الاقدار صدفة مواتية للتعرف اليهم والاحساس بدفء حياتهم. ولو ان الظروف الموضوعية تستبعد مثل هذا الاحتمال، وتجعله صعب المنال. ولكن حتى لو لم تحدث هذه الصدفة من الحظ فان اصواتهم وحدها كفيلة بأن تؤنس وحدتي وتشعرني بوجود حياة حتى ولو من وراء الجدار... لقد ولّى زمن الصمت. صمت الوحدة والوحشة، وخلّى مكانه لاصوات آدمية حقيقية: تفرح، وتغضب، وتتلاوم، وتعتب، وترسم اجواء حياة حقيقية افتقدتها شهوراً.

وادركت، لاول مرّة، قيمة الصوت الانساني وطاقته الابداعية في اشاعة الونس والالفة بعد ان ظلت حاسّة السمع لدي معطلة مشهوراً.

كان يستحيل رؤية الاشخاص بسبب ارتفاع الجدار الفاصل. ولكن اصواتهم، التامّة الوضوع، كانت كفيلة بتشكيل معالمهم، وتحديد هوياتهم وابعادهم. فاصبحت وكأنني امام جهاز راديو من نوع جديد. جهاز يقدم المتحدثين في بثّ حي وتلقائي وعلى الهواء مباشرة، ومن واقع لواجع الحياة اليومية الانسانية البسيطة واشواقها، وجناها.

لم تكن الاسرة قد فطنت لوجدي وراء الجدار. وهو وجود متلصص، نهم، يلتقط كل همسة، وكل نأمة، ويحيلها فوراً إلى صور حاشدة، عامرة، تفوح بالروائح والمذاقات والرؤى النابضة.

لم يفطنوا لوجودي المشدود كالقوس.. فانطلقوا على سجيتهم في حياة طبيعية تصل إلى اقصى مدياتها في المد والجزر والصخب والانطلاق.. وحاولت من جانبي ان اعزز شعورهم بالاستقلال؛ فصرت اتنقل على رؤوس اصابعي حافياً حابساً انفاسي، حتى لا أنبّه غزيرة الحذر الغافلة فيهم. او اوقظ مشاعر التوجس من الغرباء ومسترقي السمع، تلك الغافية في صدورهم.

ولم تمض سوى ايام حتى بدأت تتكشف لي ملامحهم. فقد نشط

خيالي في التعرف على الزوج والزوجة اولاً، ثم على الاطفال الثلاثة واحداً فواحداً.

كانوا ولدين وبنتاً قدّرت انها في الخامسة من عمرها فيما لا يزيد عمر اكبر الولدين عن العاشرة.

رسمت في خيالي وجوههم، واطرافهم، وملابسهم. وشاركتهم في لهوهم ولعبهم ومكائدهم الصغيرة. واصبحت مع الأيام مفتوناً بحماقات طفولتهم وغفلتهم.

فعندما كان يشتد صخبهم ويعلو صوت الصغيرة طالبة النجدة من امها، كانت يد الخيال تمتد من فوق الجدار مربتةً على رأسها تطيّب خاطرها بشعرها الاشقر، وثوبها ذي الازهار، واداعب جديلتها التي تشبه ذيل الجدي. وارى الفراغ الذي خلّفه سقوط اول اسنانها اللبنيه. بل انني كنت اتحسس ساعديها القصبيين بزغبها الملائكي، واتلَّمس كفيها الصغيرتين بحجم قطعة النقد المعدنية. واقبل اصابعها الشبيهة باعواد الثقاب.

- ماما... انا ارقص مثل ساندريلا.

- ابعدي يا ساندريلا عن سطل الغسيل.

- وفستاني يطير
- طيري بعيداً عن الغسيل
- ماهر لا يطير مثلي.
- ماهر لا يلعب بجانب السطل
- حمار. كان رفسني في بطني... هكذا...

وتدحرج سطل الغسيل... وبدأت حملة توبيخ الام واختفى صوت ليلى.. وكان هذا اسمها. لا بد انها تجلس بعيداً تراقب امها وتشعر بالذنب. فقلت لها – مواصلاً تخيلاتي – ولكن ما هذا النمش المرشوق على اعلى خديك يا ليلى؟

هذا حب القزحه "حبة البركه"..

اسمك جميل ولكنه تقليدي يا شفية. لو كنت ابنتي لاسميتك هاله او مها او اي اسم رشيق آخر يبدو طليقاً ليّنا ممشوقاً كنقرة عصفور..

ومع الأيام، وجدت نفسي مشتبكاً في سيرة حب ابوي مغلول بالحرمان. حب لمطلق الطفولة في مواجهة وحشة جدران الصحراء الصفراء.

الصبي الاكبر، صدام، كان محافظاً قليل الكلام. يتوجه إلى ما

يريده مباشرة. رأساً ودون مراوغة. ولم تكن الجروح والندوب في ركبتيه لتبرأ ابداً. فما ان يجف جرح، حتى ينتفخ من جديد. مجنون بتسلق الاشجار والاعمده وخبط الكرة بالجدار. شرس مثل حصان يستعصي على الترويض. ولم تكن رعاية الام المتواصلة لتنفع في الحد من توالي الجروح والكدمات. فاسقط في يدها أخيراً، واعلنت استسلامها، وتركته لشيطناته يدفع ثمنها مباشرة من تلك الاصابات الصغيرة التي يشفي اللاحق منها السابق.

اما ماهر، الولد الاوسط، فكان هو الأشد مكراً.عفريت بمعنى الكلمة. لا يتوقف عن تلقي الصفعات وكيلها للآخرين.. وكان واشياً محترفاً. فاذا لم تجد وشايته اذناً صاغية وهو الامر المعتاد، استل لسانه السليط الذي لم يكن يوفر احداً.. كان شقياً من النوع الذي لا تملك معه الا ان تشدّه من احدى اذنيه...

هؤلاء هم الجيران الذين اعطوا لحياتي المنعزلة معنى.

وكنت اودّع هؤلاء عندما تسرقهم غزالة النوم، لأنصرف إلى ثلاثة اصدقاء آخرين تعرفت عليهم حديثاً. فمع الزمن اتسعت دائرة معارفي. وتوثقت علاقاتي بهربرت ماركوز، وجيمس جويس،

وغابريل غارسيا ماركيز. وكان هؤلاء الثلاثة هم ندماء سهراتي الطويله بعد ان ينام الصغار.

كان ماركوز اكثرهم صلفاً وفظاظة في استعراض مخططاته الفلسفية. لا يحلم بان تكون فكرته صواباً كلها فقط، بل كان يستفزنا في سعيه الدائم لجعلها الصواب المطلق الوحيد. وهو ما كان يعارضه فيه غابرييل فيروح يلاسنه محنقاً حتى تجحظ عيناه.

كنت أحياناً اراه على صواب في تهوّره. فالفكرة ليست في قيمتها المطلقة، بل بطريقة استخدامها وغناها لدى الاستعمال.. قليلاً ما كنت اتدخل.. كنت افكر فقط. كان ماركوز يتحدث عن تسطيح الوعي ويسميه الوعي الممسوخ. واكثر ما يثيره هو هذا الحقن الفعلي للملكات النقدية بمضادات تنسخ من العقل كل ما قبلها، وتجرد كل قضيّة من ابعادها.. كان يدلع لسانه لغابريل وهو يسوق المثال تلو المثال عن كيفية تلبس التشرذم بلبوس التلاحم، وتلبس العبودية بلبوس الحرية.. الديمقراطية!!

"ليبحثوا عنها في المواخير" كان يقول ثم يضيف: لا مجال للتراجع. فاما الصخرة وأما الابريق.. وكان يعني بذلك المثل الإسباني

القائـل: "إذا وقعـت الـصخرة عـن الابريـق، أو وقـع الابريـق عـلى الصخرة؛ فالابريق مكسور..". ولم يكن جويس يخفي نزعته التجارية، ولا مرجعيته التوارتيه وهو ممدد على الارض دائماً نـصف ثمـل. تـراه قابضاً على عنق قنينة النبيذ كمن يخشى عليها مـن الهـروب، يحـدق في السقف ويردد ساخراً "انه تزييف الحس يا صديقي. تزييف الحس ولا شيء ابعد من ذلك" يقول ذلـك دون ان يحـول عينيـه الكليلتـين عـن السقف، ودون ان تعرف ما اذا كان يتوجـه بكلامـه إلى مـاركوز ام إلى غابرييل ام إلى السقف نفسه..

لم اكن اشارك في الحديث. واقتصر وجودي دوماً على دور المضيف الدؤوب والمستمع المحايد.

اما غابرييل، فكان إلى جانب اتهامـه لجـويس بالماسـونية بمناسـبة وبدون مناسبة، فقد كان دائم التحسر، لانه لم يولم شاعراً شعبياً زجلياً. وعند ذلك كنت اوافقه الرأي بهزّة خفيفة من رأسي. فانا لا املك مـن هذه الاراء اكثل مما يملكه قط متشرد. وكان غابرييل دائم الحديث عن التخطيط لروايته الجديدة "صعود الثعلب على المئذنـة" وهـي الروايـة التي سيحشد لها كل غواياتـه وروابطـه الرعويـة وتـشوفاته الكاريبيـة "الخائبة" على حد قوله.

وكان لا ينفك يحدثناًعن ميزات فنـادق الدرجـة الثالثـة. وعنـدها يستيقظ جويس من ضباب الكحول قائلاً له..

. احسنت.

كنت اغفو على هذيانات جويس، وهرطقـات مـاركوز، واصـحو على صوت الصغار وهم يـصايحون ويتـسابقون إلى الحـمام الوحيـد في الحوش. كنت اراهم وهـم يتـدافعون امـام المغـسلة، واضـحك مـلء صدري وانا اسمعهم يجـدّون في البحـث عـن جـواربهم واحـذيتهم. اسمع رفيف اجنحتهم، واشتمّ غبار نجومهم.

كنت اشاركهم طفولتهم بصمت متعلقاً بهم تعلقي بالحياة نفـسها. حتى غدت حياتي اشبه ما تكون حياة بالانتساب. كالدراسة في جامعة بيروت العربية كنت اعيش حياتي في حيـاة انـاس آخـرين. مثـل مـن يؤثث بيته بفراش مستعار من الجيران مؤقتـاً إلى ان كـان ذلـك اليـوم عندما عادوا من المدرسـة دون جلبـتهم المعهـوده... دخلـوا الحـوش صامتين. وظلوا صامتين طوال فترة ما بعد الظهر...

قـدّرت حـدوث مكـروه... يـا ستّار. قلـت في نفـسي. ومـضت الساعات ثقيلة ملغّمة حتى صار قلبي مثل قطاة علق جناحها بالفخ..

جـن جنـوني.. ورحـت اذرع الحـوش جيئـة وذهابـاً مرهفـاً الـسمع مشدوداً، لعلّي التقط كلمة من هنا او شكاية من هناك، إلى ان تناهى إلى سمعي ما يشبه النواح.

واستطعت ان اصطاد من كلمات الام المتناثرة بـضع كلـمات اثنـاء غدوها ورواحها بين الحوش والغرفة، فهمت من مـضمونها ان قـراراً قد صدر من الجهات الرسمية بحرمان الصغار من المدرسة!!

هل هذا معقول والعالم يحتفل بايام للطفولة؟؟ لماذا؟

لأن اقامة الأب قد أُلغيت بقرار صادر عن جهة رسـمية اخـرى!! لماذا؟

وبدأت الامور تتكشف.. ومع حلول المساء وعودة الاب انكشف ستار المأساة الكاملة..

كانت اعنف كوميديا سوداء يمكن للشيطان ان يؤلفها.. تعـال يـا غابرييل بحكاياتك الملفقة. تعال يـا مـاركوز باكيـاس الـضراط التـي تدعيها. تعال يا جويس بهلوساتك

تعالوا وانظروا ماحدث.

كان خلاصة ما حدث ان الهندي تشاجر مع الباكستاني بحضور الاب الذي حاول الفصل والاصلاح بين المتخاصمين. وقد جُرح الباكستاني في العراك وتشكلت لجنة تحقيق انقسمت فيها الاراء.

اما الرأي الاول، فقد ادان الاب لانه تدخل في امر لا يعنيه من قريب او من بعيد، وحشر انفه فيما ليس مكلفاً به قانوناً. وهو الامر الذي نتج عن رجحان كفة احد المتخاصمين التي ادت إلى جرح الآخر!!

واصحاب هذا الرأي يكتفون بفصل المتهم من العمل وسحب اقامته في البلاد مع التوصيه بتسفيره فوراً.

اما اصحاب الرأي الآخر، فقد افتوا بادانة الاب لانه تقاعس عن اداء واجب انساني تقتضيه المروءَه وتحتمه واجبات العرفان للبلد المضياف الذي يسر له لقمة العيش الشريف.. وان المتهم لم يكن حاسماً ولا جاداً في تدخله للفصل بين المتخاصمين، الامر الذي ادى إلى ان يجرح احدهما الآخر على ارض لا تعرف غير السلام والعطاء!!

واصحاب هذا الرأي يحكمون بتغريمه بنفقات علاج المصاب مع

فصله من العمل وحرمانه من مكافأة نهاية الخدمة، وسحب حق الاقامة والتسفير الفوري.

"لأن تقاليدنا تأبى علينا قبول امثال هؤلاء المتقاعسين بين ظهرانينا" كما جاء نصاً في احدى فقرات القرار.

في تلك الليلة استعصى عليّ النوم واستعصى الكلام والوجع واصبت بحالة من التبلد دفعتني للخروج هائماً على وجهي في الطرقات.

كانت البيوت كالسفن الغارقة في الظلام. فرحت اخاطب النجوم والليل الجاثم. وكانت الجدران تنضح بهمس ماجن. والطرقات تترنح سكرى. والابواب منهوكة بالصبر تنوء بصمتها تحت سماء سوداء مكتملة الجهامة. وكانت الجهات والابعاد قد تخلت عن مسؤوليات دلالاتها وراحت تتداعى مثلما يتداعى عتاب الضحايا امام جهامة وجوه السيافين القتله. ورأيت صفاً طويلاً من المكائد الملساء تعقدها افعوانات ذوات لحى مدببة واعين براقة خسيسه. لا بد من وجود احد يجوب عالم هذا الليل. يوقظه، يوقفه عند حدّه. كنت ادق ابواب الليل بكل ما في روحي من عزم. كان الاثير يقطر سماً ناقعاً والاشجار واجمة

محتقنه بغضب كتيم. وسمعت فحيح الملح وهو يتواطأ مع عطش الصحراء. وكان القمر يتأفف من حكمته الفارغة بعد ان ادركته الكهولة وبدأت تظهر عليه اعراض وجيب القلب. كان في النزع الاخير.

وكان هوبرت ماركوز بامساكه المزمن يجلس متربعاً بين الدب الاكبر والدب الاصغر يغزل طاقية من زغب النجوم تحت قدمي المرأة المسلسلة.

وجيمس جويس بعينيه الكليلتين ومعدته المنتفخة، يضرب بعصاه ويواصل الهذيان عابراً السماء من الغرب إلى الشرق يجر وراءه اذيال عباءته المرصعة باللؤلؤ الاسود.

وكان غابرييل يتحسس كليتيه متكئاً على الطوار عند فوهة بئر مهجورة وكان يواصل الضحك المرور صارخاً في فوهة البئر.

وحتى بنات نعش تخلت عن وقارها في تلك الليلة، وراحت تضرب الدفوف حول نعش ابيها.

العالم كله كان يتهادى من حولي كقافلة عادت مفلسة عندما هوت على كتفي يد الشرطي الثقيلة

"واخيراً وقعت" قعقع صوته في اذني كمغلاف بندقية صدئه.

"واخيراً وقعت" قال. فاعتصمت بالصمت. سألوني. رفضت الكلام. حاولوا. اعتصمت بالصمت. عاودوا المحاولة فتشبثت بصمتي. وكان المرجل يغلي في داخلي. واخيراً جرى تسفيري من البلاد.

وعندما كنت على ارتفاع ثلاثين الف قدم، وكانت الكثبان الرميلة تنساب إلى الوراء كثعبان هائل، خيل الي انني اسمع جلبة نفس الاولاد وضحكاتهم وفوضى طفولتهم. يبدو انهم قد رحّلوا على نفس الطائرة.

وتمنيت بعد فوات الاوان، لو انني استطعت مساعدتهم بطريقة ما.

آه لو انني استطعت... لو انني... رأيت وجوههم من قبل.

آه لو انني أستطيع أن أتعرف على وجوههم.. لو أنني رأيتها ولو لمرة واحدة فقط...

الطبل والعصا

منذ ان رسم انسان الكهوف ــ جدنا المبجل ــ أول طريدة على جدار الكهف، ما زلنا نكرر نفس الحكاية:

نقرع الطبل بالعصا لنجمع القبيلة. ولا يموت الجد الآ بعد ان يورث الحفيد طبلَهُ وعصاه.

حدث هذا مع جدي. وجد جدي. وفعلته سلسلة طويلة من الورثة إلى ان انتهى الامر اليّ ووصلني الميراث.

وذات ليلة موغلة في القدم ــ لم تكن شديدة البرودة على اية حال ــ حملت الطبل والعصا وبدأت الضرب...

حدث ذلك في ليلة جد بعيدة لم اعد اذكرها.

وما زلت اواصل قرع الطبل دون ان يتجمع حولي أحد من القبيلة.

هل اصابهم وقر؟؟

هل تفرقوا في الاصقاع وماتوا مثلما تنتحر قطعان الحيتان؟

ام ان احوالهم تقلبت مثلما حدث لاهل اليسار الذين لجأوا لقلاع اهل اليمين؟.

كل شيء جائز، إلاّ ان يكونوا قد زعمّوا واحداً منهم ليعبر بهم النهر........ فعبروا. وجرفهم النسيان...



عبـاءات

يوم وفاتي؛

لبسوا نفس العباءات،

وتمنطقوا بنفس الاحزمه التي تحزمّوا بها يوم مولدي..

يعيدون سيرتهم الاولى بتلافي الاسباب.

بقطع النظر عن النتائج....



المنـدل

دقق النظر جيداً..

دقق النظر عند مركز نقطة الزيت. دقق..

وقل لي ما الذي تراه

نعم. هي تلك.. أراها جيداً.

لحظة حظ خاطفة هي ما اوصلتني إلى ما انا عليه الآن...



إبراهيم الميت

عندما بلغت امي سن اليأس؛

جاءَها من يبشرها بغلام اسمه يحيى!!

ولهذا السبب بالذات كان اسمي

ابراهيم الميت..



ذاكرة الحبر

في منتصف القرن العشرين، كنا ما نزال نكتب بالحبر السائل.

وكانت ادوات تجفيف الحبر تقف على قـدم المـساواة مـع المحـبرة والريشة.

كنا نستخدم ورق النشاف لتجفيف ما نكتب اولاً باول.

في ذلك الزمان كتب احد الروائيين ما معناه:

"ان الحرية الحقه هي تلك التي تدفعنا لتحرير الآخرين"...

وانتهى القرن ليجد العالم نفسه اقـرب إلى العبوديـة اكثـر ممـا كـان عليه في اي وقت مضى.

تأملت في السبب مليّاً.

فتبين لي ان الناس قديماً كانوا ينسون ما يكتب قبل ان يجف حبره.

أما الآن،

وبعد ان انتهى ذلك الزمان،

فلم تعد الذاكرة شيئاً ذا بال بعد ان اصبحت الكتابـات كلهـا تـتم بالحبر الجاف.



غـربـاء

هكذا تراهم دائماً.

ساكتين على شيء من التواطؤ. بينما تحوم الفكره حـول رؤوسـهم. حول كل واحد منهم.

"ابتعدي... ابتعدي..."

ويتشاغل واحدهم عنها بسن القلم،

او بطرف الشارب،

او بتدوير السبابة حول حافة الفنجان.

وقد يتظاهر بالقراءة في ورقة ما...

حتى اذا ما كـسر احـدهم الـصمت متظـاهراً باللامبـالاة، ذهـب بكلامه في اتجاهٍ غير متوقع وتكلم بشيء مختلف تمامـاً. غـث. ومختلـف تماماً

شيء مختلف وابعد ما يكون عن تلك الحالة الماثلة، المستبدة، الصامدة كجدار.

وهكذا يواصلون الانتظار. دون حركه. او اشارة تدل على النية في تخطي هذا الشرك المقيم من الصمت.

فيقضم احدهم اظافره، او يعلن ان الجو شديد الحرارة. وخانق...

وربما تهرب احدهم نحو النافذة ليطل على اللا شيء فيما يواصل الاخرون الانطواء على انفسهم، والتشبث بمقاعدهم في جو كتيم لا يطاق.

وعندما يترك احدهم مقعده ويغادر، تلاحقه العيون في سيره الوئيد على طول الممر، وقد داخلهم شيء قليل من الاحساس بالخيبة. اما المقعد الذي فرغ لتوه، اعني المقعد الفارغ الذي راحوا يرمقونه وكانهم يستحثونه على قول شيء ما... فقد ظل هو الآخر صامتاً مستغرقاً في التأمل...

"يا لكم من غرباء"!!!



عزلة

صار العالم شديد الوحشة... شديد العزلة.

وما هذه المجاملات والصور التذكارية والأضواء والاحتفالات والمهرجانات والبهارج والمعانقات، سوى الدلائل الدامغه على تلك العزله.



معركة خاسرة

السبب اننا لا ننجح في عقد مصالحة مع الحياة بسيط جداً. فهي تقهرنا عندما تجيء بنا مجرّدين من بطون أمهاتنا رغماً عنا... تهزمنا اولاً، ثم تبدأ حربها علينا بعد ذلك.

انها المعركة التي تسبق نتائجها المقدمات.

فيا لنا من ابطال ملحميين نخوض معركتنا الخاسرة حتى حدود الإلهام...



أصدقاء

انا اقدس الصداقة.

احب الاصدقاء كثيراً واسعى للبحث عنهم بمصباح ديوجين.

وفي الخمسين سنة الاخيرة اكتسبت مئات العداوات أثناء محاولة البحث عن اصدقاء.

واسفرت جهودي عن صديقين اثنين انزلقا من بين اصابعي اثناء محاولتي للتشبث بهما....



سفينة نوح

السفينة التي أتشبث بها كلما طغى الطوفان الـذي غمـر حياتنـا في السنوات الأخيرة، هي نفسها سفينة نوح... نوح حزّين.



على عادتهم في ذلك اليوم

إنه يوم الجمعة الذي ينتظرون.

يومهم الموعود. اليـوم الـذي يـستقبلونه مثـل كـل مرّه متفـائلين كغيرهم.

الآخرون ايضاً يعقدون عليه الآمال، ويمنّـون الـنفس بـشيء مـن هذا القبيل.

منذ الصباح يعدّون كل شيء ويستعدون قائلين

"انه يوم الجمعة... وماذا إذاً"؟

وسرعان ما يلتئم شـملهم حيـث الـصمغ الهـش المتخثّـر ينـضح كالقذى من السيقان السامقه لشجرات السرو المعدودات

وهناك، في الظل المائل، مثل المـرة الـسابقة، والمـرة الأخـرى التـي قبلها يلتم شملهم، ويتبسطون في احاديث شتى

"خذ هذا"

جرّب هذه.. قطعة واحدة.. قطعة واحدة فقط خذ.. جربها

لا ليس لنا،

اظنها ليست على ما يرام،

نعم تجدها في المحل المجاور لسوبر ماركت الاحلام بعد العطفة التالية على اليمين.. هل تصدق هذا..

ورويداً رويداً يتباعد الحديث، يتقطع، ويتناءى، حتى ينتهي بهم الوقت إلى ما بعد العصر حيث يكونون قد أخذوا وقتاً كافياً للصمت الشارد متأملين في احوالهم. فيبدأون بالتفرق في جماعات صغيرة كالعناقيد الذابلة يجمعون اشياءهم الصغيرة المتناثرة بهدوء، ثم ينسّلون مغادرين عائدين ادراجهم بصمت من حيث جاءوا، وقد انهكهم هذا اليوم تماماً.



الشارع الذي رحل

ثمّة قناعة – لا مبرر لها – أخذت تتأصل مؤخراً لدى الشارع الذي يمر من أمام بيتنا، فحواها أنه مضّطهد!!

شارع عادي. لا يمتاز على ما عداه من الشوارع بشيء.. لا بواقعه الزفت، ولا بقوامه المغشوش.

بل إنه محروم حتى من أبسط المؤهلات التي حباها الله لغيره من الشوارع الغفيرة من حفر ومطبات وشقوق... ناهيك عن أنه شارع فرعي صغير وقصير بشكل يصعب التسامح معه.

ولأن الدنيا قناعات، والناس أحرار فيها يذهبون ويعتقدون، لم أشأ أن أحشر أنفي في شؤونه الخاصة. كما أنني لم أعر المسألة كبير اهتمام في البدايه. وظننت المسألة واحدة من تلك النزوات الإسفلتية المؤقتة التي تصيب بعض الشوارع الفارهة، أو أنها نتاج اضطرابات

نفسية عارضة يعانيها الكثيرون هذه الأيام، سرعـان مـا تـزول. إلا أن وجهه ظل يـزداد تجهـماً واكفهـراراً مـع كـل صـباح أقابلـه فيـه أثنـاء خروجي من البيت.

ثم راحت حالته تتدهور بسرعة غير متوقعه. فبدأ يتحرّش بسّيارتي كلما حاولت ايقافها إلى جانـب الرصـيف. وصـارت الاحتكاكـات - التي حاولت تجنبها بكل ما وسعني - تأخذ طابعـاً اسـتفزازياً متعمـداً وعدوانياً جارحاً، امتلأت جرّاءَها حوافّ السيارة المسكينة بالكدمات والجـروح والنـدوب. وظهـرت نوايـاه العدوانيـة حيـالي بكثـير مـن الوضوح عندما تمكن - ذات محاولة اصطفاف بريئـة - مـن الاطاحـة بعادم السيارة بنطحةٍ متعمدةٍ محكمةٍ سددها لفوهة العادم جأَرت معها السيارة المسكينة بصورة موجعة...

وعندها قررت مواجهة الامر. بالحكمـة والكلمـة الطيبـة بحكـم الجيرة أولاً، ومن ثم بالحزم اذا اقتضى الأمر ولم تَنفع المساعي السلمية.

الاعتقاد السائد حول حياديّة الشارع في عالمنا العربي، هـو اعتقـاد خاطىء لا تؤيده التجربة. وان ايدته النظرة العجلى إلى بعض الظـواهر

الطافية على السطح. وبشيء من مثل هذا الاعتقاد الساذج، أخذ الجيران الليبراليون – بنواياهم الحسنة المعروفة – يلقون عليّ بالائمة، ويفسرون المسألة بمقولاتهم الجاهزة حول سوء إدارتي في القيادة، وقلة احتراسي، وعدم كفاءتي، إلى آخر المعزوفة إياها التي تساوي بين الجاني والضحية!

ولكن ذلك كله لم يزدني إلاّ اقتناعاً بسلامة موقفي، وبأن وراء المسألة مكيدة خبيثة، تضافرت على حبكها وتدبيرها جهود الشارع ورصيفه. فهما من نفس الطينة ويصدران عن نفس القناعات السوداء.

حاولت في البداية استعمال اللين.

فبدأت أفكر في أسباب شعور شارعنا بالاضطهاد الذي انتهى به إلى هذه العدوانية الصريحة.

واكتشفت لأول وهلة ان الشارع بلا اسم. ومجهول الهوية. فقر في نفسي ان فقدان الهوية ربما يكون دافعاً معقولاً لهذا الإحساس بالاضطهاد.

وحلاً لهذه العقدة، أطلقت عليه اسماً رناناً، اسميته "الشارع العربي" تزلفاً له من جهة، ونكاية بالشوارع التي حملت أسماء أعجمية مستفزة مثل تاتشر وريغان وغيرهم من ناحية أخرى.

الاّ ان حالته ظلت على حالها من السوء... ولكن ذلك لم يثبط من عزيمتي فجربت وسائل أخرى.

فمثلاً استبدلت مصابيح الإنارة المحترقة بأخرى جديدة، قائلاً بيني وبين نفسي، انه ربما كان يشكو من تفشي العتمة، وعدم وضوح الرؤية. ولكن ذلك لم ينفع أيضاً..

نظفته من القمامة، وصبغت واجهة البيت المطلة عليه، دون جدوى.. فانت لا تستطيع أن تجر إلى السلام شخصاً لا يريد السلام.

وهكذا ظل يتجاهل مبادراتي. وظلت حالته تزداد سوءاً، إلى ان حدثت الفاجعة ذات صباح عندما خرجت من البيت فلم أجده في مكانه!!!

حمل عصاه وارتحل ليلاً...

وفيما أنا اتفقد المكان حزيناً يائساً، عثرت على ورقة قديمة مكتوب فيها – باسلوب شوارعي – كثير من الكلام عن الموازين المائلة والكيل بعدة مكاييل وكلام كثير لم افهم منه شيئاً يتحدث عن شيء اسمه "العلممة" او ربما العلومة، او العولمة لست ادري. وقرأت عن قرارات ظالمة، وحصارات جائرة، وطغيانات. وعن اناس تنكروا لعربتهم وربما لعروبتهم (لست متأكداً).. كلام كثير. كثير. بعضه مفهوم، وبعضه متهافت او عصي مستغلق.

ولفت انتباهي جملة مطموسة بها غطاها من سخام وزفت في نهاية الكلام تقول.

"ساغادركم. فانا لم اعد اتحمل ما تتحملونه انتم من الا... انات..." الكلمة مطموسة لم استطع تبينها جيداً.

الجيران الليبراليون اصروا على ان الكاتب رجل مفسد. وقال بعضهم انه "مضروب بعقله" باللهجة المصرية، وقال آخرون انه عديم الذمة، ضعيف الانتماء... الخ.

أما أنا فما زلت أتساءل:

أيكون ذلك هو الشارع وقد ترك لي بعض مذكراته؟

وهل يمكن للشوارع ان تضيق ذرعاً بالناس مثلما يفعل الناس؟

من يدري؟. ربما.. ربما..

الـشيء المؤكـد هـو ان شـارعنا الـذي سـميته "الـشارع العـربي" مفقود.. حمل عصاه ورحل ليلاً..

ولكن؛

الى أين تذهب الشوارع عندما ترتحل يا ترى؟؟



يده الزائدة عن الحاجة

عندما تفشت البطالة، وكثرت اللصوص،

اتهموه بسرقة رغيف فقطعوا يده اليمنى.

قطعوها بالسيف، ثم غمسوها في القطران المغلي حفاظاً على صحته.. فقضى حياته كلها بعد ذلك فيلسوفاً ساخراً، لا تراه الاّ مقهقهاً لا يتوقف عن الضحك.

وعندما سأله أحدهم عن السر في ذلك قال:

انت ترى ان الواحد منا يعيش عاطلاً، لا يجد عملاً مهما كان تافهاً.. عملاً يشغل به حتى يداً واحدة، مما بالك بمن يملكون اثنتين؟!

وانا اضحك من هؤلاء المغفلين الذين يجدون عزاءَهم في انتزاع اعضاء ليس لنا بها ايّما حاجة!!

ثم توقف قليلاً... واضاف مقهقهاً على عادته:

وليس في نيتي، في القريب المنظور، ان اكون واحداً مـن المـصفقين لهؤلاء...



القطار*

تحرك بنا القطار متهادياً بجبروتـه المعهـود، ومـضى يقطـع الفيـافي ثقيلاً لاهثاً وواثقاً مثل قدر اعماه العناد والتصميم.

وراحـت المحطـات تتراجـع مـارّة بنـا مـثلما تتعاقـب الاشـجار والسهوب.

وليلة تتلوها ليلـه، وشـهر يتلـوه شـهر، واصـلنااجتياز المفـازات والقفار حتى كلّت عيوننا عن التحديق عـبر المـسافات. وصرنـا كلـما تفاءَلنا بقرب الوصول، تطاولت المسافات امامنـا واوغلـت وامتـدت وانقلب البصر الينا مرتداً وهو حسير.

وبدأت استشعر شيئاً من القلق. ولكن القطارات قلّما تعبأ بمشاعر المسافرين.

---

* مستوحاة من قصة للصديق المبدع محمود الريماوي تحمل نفس العنوان.

كبرنـا اثنـاء الرحيـل، وشـاخ بعـضنا، حتـى لم نعـد نتـذكر عـدد المحطات التي مررنا بها قبل ان نصل إلى حدود اليأس...

وهناك، عند سواحل بحر الظنون، بدأ الجميع يـضربون الاخمـاس بالاسداس.

فقال بعضهم انها رحلة الابد.

وقال آخرون بل هو المنفى.

وكنت مأخوذاً بتجليات المعـاني التـي وضـعتها العـرب في كلمـة "المفازه" عندما ارتفعت التهاليـل وعلـت صـيحات الفـرح بوصـول الجميع سالمين إلى المحطة ا لاخيرة..

لادرك عندها انني كنت قد ركبت الطقار الخطأ...



حــالــة

بعد طول تدّبر ومجالدةٍ... تعلمت الصمت.

لدرجة انني صرت قادراً على سماع لواعج المحار في اعماق البحر.

وثرثرة النجوم في اعالي السموات،

ودبيب الرغبات في دهاليز الخافيه..

وعندها،

وعندها فقط،

بدأ رأسي يمتليء بالضجيج



السعدان الحكيم

بعدما انتشرت حكاية الاسد مع الثيران الثلاثه وفاضت حتى عمّت المدن والقرى والدساكر، واكتسحت المضارب والبوادي، وتندرت بها حتى الفضائيات؛

افاقت الثران الثلاثة على هول الكارثة التي حلت بها، وراحت تعض اظلاف الندم على ما كان من تفريطها بوحدتها بعد ان تبيّن لها حجم الخديعة التي اوقعها فيها تدبير الأسد اللئيم.

فقررت الاخذ بثأرها والانتقام من الأسد الذي جعلها حكاية يتندر بها السوقة والسمار وصبية الاعلام، ويتشدق بها "اللي يسوي واللي ما يسوي" على حد قول الثور الابيض.

خرجت الثيران من مخطوط كليلة ودمنة، وراحت تضرب في الارض تبحث عن مكان الاسد اللئيم.

شرّقت في الارض وغرّبت، وشمّلت وقبلّت، واتصلت لياليها

بنهاراتها حتى تورمت اقدامها لطول البحث. ولكنها لم تجد لا الاسد، ولا حتى الغابة "موقع الجريمة"

ولكنها اثناء تجوالها عثرت على أسد عجوز يضع نظارات وطاقم اسنان محبوس في قفص في حديقة للحيوان فقصت عليه قصتها.

جن الاسد العجوز بالضحك. وراح يقهقه بهستيريا. ويضرب القضبان بقبضتيه.. وظل يضحك ويضحك ويضحك حتى سقطت نظاراته وطاقم اسنانه ودمعت عيناه، وانخرط آخر الامر بالبكاء...

هالها ما رأته من حالة الاسد المسكين، وما آلت اليه احوال الدنيا، فقررت استشارة أحد السعادين المحبوس في أحد الاركان وقد اعجبتها حركاته وشقلباته وسعدناته. فتوسمت فيه الحكمة وصلاح الرأي، فتوجهت اليه بالمشوره في حكايتها.

اتخذ السعدان هيئة المستشار الحكيم. وراح يستمع لقصتها بأناة لا تعوزها الحكمة، ولا ينقصها الوقار، حتى انتهت الثيران من سرد قضيتها. وظل السعدان ساهماً يتأمل الثيران، ثم راح يحك خلف أذنيه، وما بين ساقيه، وانتهى به الامر إلى التعلق بذيله وراح ينصحهم وهو يتأرجح مقلوباً قائلاً:

اقترح عليكم يا سادة أن تعيدوا ترتيب قصتكم من جديد، وتحويلها من شكلها الاسطوري إلى شكل سياسي معاصر. على ان يبدأ الاسد باكل الثور الاحمر هذه المرة بدلاً من الثور الابيض كما جاء في قصتكم القديمة.

ثم توقف وتنهد ومدَّ ذراعيه دلالة اليأس امام هكذا حكايه، واضاف قائلاً:

ففي ظني ان العمى الذي اصاب بصيرتكم لاعلاج له حتى عند احكم السعادين...



تأملات في الصمت

لان الكلام وحده لا يكفي... اخترعنا الصمت.

ومنحناه بركاتنا للايفاء بكل ما ينتقص من جلال المعنى. ولشيء كهذا،

تظل الاشجار صامتة امام فائض ظلالها.

صمت مطبق،

وصمت ثقيل،

وصمت عميق،

تصنيف يشبه إلى حد بعيد.. درجات الفقر.

ترى؟

ما مقدار الضجيج الذي يلزمنا احداثه لانتاج قيراط واحد من الصمت الاصيل؟. الصمت الذي من ذهب؟.

صمت القبور على درجة من البلاغة لا يقـدر عـلى ابـداعها مجـرد الموت..

ولكن صمت ابي الهول اقل اتقاناً، وان بدا لبعضِ المتعجلين، اكثر موضوعية.

لم اجد في حياتي ما هو اكثر ثرثرة من صمت الاصابع

الاّ صمت العيون. ولأن بعض الصمت اكثر دوياً من الصراخ

فان صمت المقهور وعد مبرم.

ليس هناك ما هو اكثر انتهاكاً لحرمـة الـصمت مـن الهمس، لانـه يسرق منه مغزاه، وجلاله.

صمت الكاذب، كالعجوز المتصابيه، كلاهما شروع بالفحشاء.

ولعل اكثر انواع الصمت فحشاً،

هو ذلك الذي يعقب صمت المدافع حينما يأخذ السماسرة اهبـتهم للكلام....



إلى أي مكان

خرجت من احدى الندوات بكاملي بعد ان تـضخم رأسي وصـار بحجم مدينة عمان الكبرى.

لم يكن من اللائق خروجي اثناء حديث المحاضر الممل. فتحاملت على نفسي، وقررت الصمود إلى النهاية.. ونجحت في ذلك. وحسدت نفسي لقدرتي الفائقة على التحمل وتجشّم المكاره.

المهـم حمـدت الله بـاخلاص لم أحمـده مـن قبـل عـلى انتهـاء هـذه المحاضرة. ولذت بالفرار لا الوي على شيء.

وقررت ان امنح دماغي ساعة مـن الاسـترخاء بالتمـشي الطليـق المترّيض، في شارع قليل السيارات لعلي استيعد شيئاً من الصفاء اعالج به ذهني المكدود، فاتخلص من ثقل الرصاص الجاثم في جمجمتي.

ولانني انطوائي ونـادر الاصـدقاء بطبعـي، فقـد حمـدت الله مـرّة

أخرى على الانفراد بنفسي لاقتناص ساعة من الكسل المراح اللا مسؤول بحرية تامة.

ولكن.

ولانني من مواليد برج القوس الذين لا يفارقهم سوء الطالع ولو للحظة واحدة، وجدته امامي هكذا فجأة... كورقة يا نصيب عوّلت عليها طويلاً ثم فوجئت بانك اضعتها ساعة السحب.. كان هو نفسه المحاضر.

من اين جيء به إلى هذا المكان.

اي حظ شيطاني هذا الذي ساقه اليّ ووضعه في طريقي! لست ادري.

كل ما ادريه انني من مواليد برج القوس، وان رأسي بحجم مدينة عمان الكبرى.

وصاحبنا هذا عُتُلّ كثير الكلام. لا يراعي في السياسة إلاًّ ولا ذمام. حجة في الكلام الفارغ في الاقتصاد، وفي معرفة شؤون البلاد

والعباد. أما في السياسة فسيفٌ ابتر، لا يرعوي ولا يتدبر، محاضر حرّيف، ومثابر على الكلام السخيف. لا يكل له لسان، ولا يفرق بين المِنْحَة والاحسان.

استعذت – في سري – برب الفلق، من شر ما خلق. وسرعان ما هاجمني بالاحضان، فاحتضنته. وقبلني، فقبلته. وكتم بفيض اشواقه انفاسي، فاحتملته. ولدى سؤاله عن الحال، حمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه. وبدأت جاروشة الكلام.

وفي حدود علمي، كانت الساعة في حدود السادسة مساء، عندما شرع في الكلام. ولست ادري كيف ولا اين ولامتى مرّت الساعات عندما وجدت نفسي في الساعة العاشرة بعد ان طوفني بسور برلين وحلف وارسو القديم واقحمني في حرب الخليج لا جد نفسي احارب في صفوف الحلفاء في حفر الباطن، ثم عرج على كامب ديفيد ومدريد فقصر الحمراء واستحضر صلاح الدين وعبد الرحمن الداخل وعبد الله الزلط إلى ان انتهى بي في تطوافه إلى غزه...

وفجأة وبدون مقدمات، اوقفت سيارة اجرة وقلت له وداعاً..

انا ذاهب الآن إلى غزة!!.

فوقف مذهولاً فاغر الفم.

"هكذا فجأة إلى غزة!؟ وفي هذه الساعة"!

قلت باصرار.

نعم الآن إلى غزة.. وداعاً..

وعندما وجدت نفسي بجانب السائق سألني هذا الاخير:

الى اين يا حاج؟؟

ولم اكن في حالة تسمع لي بمناقشة مسألة الحج هذه فاجبته باقتضاب.

- الى اي مكان.. اي مكان..

الى مكة اذا شئت....



السهرة بكامل تفاصيلها

امتدت بهما السهرة وطال حبل الكلام

في البداية،

اعادا ترسيم حدود الضجر:

كثرة العيال،

واوجاع الليل،

وذئاب المدينة،

وعزلة اليقين.

ثم لم يلبث ان رقّ الكلام وجرى صافياً رقراقاً، مثل جدول نجا من الكارثة.

فنثر كل منهما امام صاحبه كل ما معه من زعفران، وحصى، ورسائل.

تذاكرا في ليالٍ صارت الآن بعيدةً وشاحبة.

وليالٍ أخرى – اقرب عهداً – طواها النسيان ايضاً، وظلت منها بقايا ذوائب من شعلات ما تزال عالقة بالبال.

وعندما تفارقا في آخر الليل

وخلا المكان؛

ظلت المقاعد والكتب والكؤوس ورائحة الليل، غارقة في صمتها تنهمر من حولها الاحزان.



بعض مقتنياتي

لعلي اضعتها.

ركنتها هنا او هناك.

ربما نسيتها في مكان ما.. لا اعرف.

ولكنها بالتأكيد لم تسقط مني في الطريق.. انا على ثقة من ذلك. فليس من طبيعتي ان أُسقط متاعي في الطريق، حتى الطرق الملتويه. فما بالك بالطرق المأمونة. الطرق المختصره التي صارت عزيزة المنال هذه الأيام. ونادرة ندرة الدجاج البلدي.

انا لست ممن يسقطون متاعهم في الطرقات مهما طالت او قصرت.

فاين عساني اكون وضعتها ونسيتها؟.

كانت قد عرضت لي بغتة، لقية ثمينة عثرت عليها فحرّكت في داخلي شياطين الكسب.

انتهزت الفرصة والتقطتها.

اضفتها إلى مقتنياتي.

وفي الليل، عندما اعدت استعراضها وتفحصها بدت لي ذات قيمة لا تُقدّر بثمن..

ستكون هذه واحدة من جواهري. قلت في نفسي نشواناً.

وقررت ادراجها في قائمة النفائس من غنائمي..

ولكنني افتقدتها فجأة.. كان يدا شيطانية تخطفتها.

فاين تراني اضعتها؟؟ اين نسيتها؟؟

أيكون أحدهم قد استعارها من باب: خذ كل ما لك وما ليس لك؟.

ولكن ما حاجته اليها؟.

ما حاجة أي كان إلى فكرة ولدت ميته. حتى ان صاحبها نسيها أصلاً. ولم يعد يذكر ان وضعها؟!

مهنته العجيبة

لي صديق منقطع لإطعام العصافير. يقول ان العصافير هـي آيـات الله على الارض، طحنها عصرنا مثلما طحن جلود الفقـراء.. صـديقي هذا يفيق مبكراً ويصرف نهاره في البحث عن حبات العلـف. يجمعهـا حبة حبة، لينثرها حيث تعودت ان تتجمع العصافير.

وفي الليل ينقطع لرسم الاجنحة.

اجنحة من كل صنف وكل لون:

اجنحـة للـيمام والـشحارير والقطـا والـزاغ والـسمّان والملائكـة والاطفال.

افاق ذات صباح متفائلاً، مجبور الخاطر اكثر من المعتاد. فمر ببـاب مخزن كبير للحبوب والتقط قمصة* من البـذور تكفـي لمـلء حوصـلة عصفور.

---

* ملء القبضة من الحبوب.

وكان ما يزال في غاية السعادة؛ في غاية النشوه عندما انهـالوا عليـه بالقضبان والايدي والهراوات.

ومع انه لم يكن ينوي ان يطعم اكثـر مـن عـصفور او عـصفورين، فقد تلقى من الضرب ما يكفي لأن يشيد به دولة نامية...



انفجار ديموقراطي

قال على عادته في المبالغة:

انا اكبر من الحدود،

اكبر من الاوطان،

اكبر من الحكومات

ومن الشرطة السرية.

انا اكبر من قبري بكثير.

انا الانسان

وهنا، ارتجف صوته. وبدا لي خائفاً.

قلت على عادتي في تهدئته:

ويحك!!

هذا شيء لا بُدَّ من التستّر عليه..

ولا يمكن مناقشته الاّ على الملأ....

ايديولوجيا

... وعندما تبدأ الادلجة، يتوقفون عن الضحك. الضحك الطليـق الممراح الذي يطير مرتفعاً قليلاً عن الارض.

عندها تتضخم شفاه الحرس، وتصبح جميع المسالك مغلقة ايضاً.

وحدهم المجانين لا يتوقفون عن الضحك مـن هـذه الحالـة التـي تشبه اعادة تسفيط اوراق الكلينكس المستعملة، حيث يمكن للمرء ان يموت بهدوء تام دون ان يدري أحد بذلك،

حتى القَتَله انفسهم...



صبي أسود عريض القدمين

بعد إلحاح متواصل ورجاء كثير، أثمرت زيارات أمي العديدة عن وعد من قريبها البعيد، بالتوسط لي، للحصول على وظيفة في احدى الفضائيات.

ابو أشرف، قريب أمي البعيد، ومساعد مدير العلاقات العامة في تلك الفضائيات، قدّمني للسيد المدير، مالك المحطة، الذي تبسط معي في الحديث. قال:

"سمعت أنك تكتب قصصاً".

ابتسم وهو يضيف "تسلية لا بأس بها.. والهوايات عموماً قد تكون نافعة احياناً.. وخصوصاً في قتل الوقت"

ثم ضحك مرة اخرى ورجع بظهر كرسيه الدوار إلى الوراء عاقداً اصابعه وراء رأسه، ثم اضاف بجدية:

"أما أنا فهوايتي الوحيدة هي مشاهدة كرة القدم. وخصوصاً مباريات الكؤوس..."

صمت لبضع ثوان كمن يختبر انطباعاتي وقال فجأة

"ما علينا.. المهم انا موافق على تعيينك من حيث المبدأ. واتوقع منك أن تضع شعارنا حلقة في اذنك".

نظرت إلى حيث أشار. فطالعتني على الجدار صورة فاضحة لمطربة تمسك بالميكروفون وتشرع ساقها اليمنى في الهواء لتصل بقدمها إلى موازاة رأسها. وكان الشعار المطبوع تحتها يقول:

دع الصورة تتكلم.

ولم يصرفني عن الشعار الآ قهقهة المدير وهو يقول:

"بلاغة شكسبير لا تعني عندي شيئاً. وعملنا كفريق يلزم المحررين ان يبتعدوا عن المهاترات والثرثرة الزائدة التي تسمونها البلاغة.. لا أريد قصصاً. ركزوا على الصدور العارية للنساء البدائيات. وضعوا نصب أعينكم أن هدفنا الأول والأخير هو إرضاء المشاهد. سيرافقك المصور جوني – عرفت فيما بعد انه شقيق زوجته

الإنجليزية – وهو مصور عبقري. اتبع ارشاداته لانه سيكون مسؤول البعثة".

ثم اشار لنا بالخروج:

مع السلامة.

قدموني بعد ذلك لاعلامية فاتنة، يخلو رأسها من القشرة بفضل مواظبتها على استخدام شامبو القشرة ذي التركيبة الفريدة، فوقعت على اوراق تعييني في قسم التحقيقات، على ألاّ تظهر صورتي امام الكمرة مطلقاً. ثم سلمتني تذاكر الطيران ومظروفاً ذا لون سمني يحتوي على ما اسمته "بوكت مَني" ثم نثرت شعرها بظاهر كفها إلى الوراء وتناولت الموبايل معلنة انتهاء المقابلة.

وفي غضون اسبوع وجدت نفسي في افريقيا...

صبي صغير اسود، عريض القدمين، رأيته هناك.

كان ينصت لدق الطبول الافريقية باصواتها القصيّة شبه المتلاشية. كانت تأتي من بعيد.

قرع ايقاعي كتيم، دويّه المتلاشي يعبر براري السافانا من جهة

الغرب. وهناك؛ حيث اشجار السنط القليلة تتناثر كالخيام على مدى البصر. لم يكن ثمة الاّ السهول والمراعي، تعقبها سهول ومراع، في اتصال لا ينقطع عن مدى النظر. وثمة مروج الحشائش التي تكاد تتوارى فيها الضباع والذئاب الحائمة حول حُمر الوحش الجائلة في الخلاء.

"لا أريد قصصاً.. ركزوا على الصدور العاريه"...

افريقيا كلها كانت ترتسم في مخيلتي عندما رأيت الصبي هناك، تطارده الكاميرا التلفزيونية. كان يستند إلى عصا بدائية التشذيب، انتزعها من شجرة قضاب تعزز معها احساسه بافريقيته وبدائيته، فتكاملت في مخيلتي هذه الشخصيّة الشعائرية التي اوصلت ارنست هامنغوي إلى حدود اليأس فيما كان يتامل ثلوج كليمانغارو البعيدة.

القمة البيضاء كلحية شيخ جليل، تترامى شامخة وراء الافق. ثلج ابيض لا بد من وجودة علماً وسط كل هذا السواد الممتد جنوباً حتى راس الرجاء الصالح.

بدأت الحكاية تدّوم في رأسي. حكاية الجغرافيا التي قال فيها أحدهم: أعطني جغرافيا المكان وشيئاً من ذكاء الروح، لاعطيك

شكل الحضارة القائمة.. حضارة الصمت المطبق الهابط على المكان بما يشبه وقار الآلهة حيث هناك ما يشبه الفوضى في تعاقب النور والظلال وتلاقحهما عندما تنعطف الطريق جنوباً فشرقاً بمحاذاة النهر. اما قطعان الابقار والجواميس فتتناثر على الجانب الاخر. فيما الرعاة من قبائل الماساي يتبادلون اشياءهم الصغيرة كهدايا... والمعاني هنا عارية كالاجساد. ومباشرة لا التواءات فيها ولا زوائد:

قوس، محفظة من الجلد الخام، سكين، سيور مجدولة، تعويذة من ناب التمساح، طوطم منحوت بشكل بدائي من الخشب الاسود، كلها هدايا تحمل من روح صاحبها بقدر ما تحمل من طابع المكان وروحه.

"لا أريد قصصاً... ركزوا على... الخ"

من البعيد، تتناهى، ما زالت، ضربات شبه متلاشية على طبل عرّاف تشرئب لها اعناق سرب من الزرافات تتقصّى بآذانها جهة الدوي بحذر... "انه التمساح قضم ساق أحدهم" قال الصبي.

وعلى مرمى البصر جهة الشمال تتطامن اكواخ ذات قباب داكنة من جدائل عشبية حال لونها. وتتصاعد ادخنة تتلوى راحلة نحو الشرق. وثمة على المنحدر، وراء ظهر القرية، عند اطراف الغابة، ثمّة

ضبعتان تتشممان رائحة لحم الفيل المطبوخ. ثم تواصلان الهذب صوب قطيع الغزلان.

ما تزال الاشياء هنا في مواضعها حيث وضعتها يد الله. الوجود البكر والحس الصافي الخالي من الشوائب، موجود هنا. الحشائش بنصف طول راعي الماساي، حيث يلتف الطريق. وتراب احمر داسته الاقدام العارية وظل، منذ بدء الخليقة، يعلق باقدام المارَّة وبهشير الحواف عن يمين الدرب ويساره تقطعه بين الفينة والفينة أجمة ملتفة من قصب الماء لا تلبث ان تهتز بصفق اجنحة الدجاج البري الذي هب مذعوراً لسبب ما، منطلقاً كالسهم.

حفق اجنحة الطائر المذعور تشبه تصفيق كفي الصياد...

اما طائر السُّبَد الرابض وراء القصب فيبدو اقل اهتماماً بما يحدث. فظل رابضاً ينتظر وثبة الضفدع تبرق عيناه كعيني باز الافعى.

اما رفوف ابو منجل ومالك الحزين، فما تزال تتسكع عند الطرف الآخر للمستنقع، تروح وتغدو منذ ساعات ما بعد الظهر. طيرانها قصير. خفاشي وصامت. وتنساب كلحنٍ ساحر.

تستقيم الطريق قليلاً، ثم تنحدر إلى اليمين. وثمة رائحة حرّيفة تنبعث من لطعة طازجة لجاموس، او زرافة ربما، يطن من حولها ذباب ازرق، واحدته بجم النحلة، ينطلق من خلال الاعشاب كالرصاص. الاكتمال التام للتلاؤم بين الكائن والمكان.. وثبة الضفدع تبلغ مئة ضعف طولها قبل ان يلتقطها طائر السُّبَد. اما الحرباء ذات القرن فقد اخرجت غوغان عن طوره اثناء محاولاته مزج الالوان.. فشل في المزج فآمن بعبقرية اللون البدائي، وكفر بكل النسب في الخلط، وانتهى به الامر إلى اعتماد الالوان البدائية السادة. الوان الطين.

المكان زائداً ذكاء الروح، اولنقل شكل الجمجمة، هو صانع الحضارة:

الصحراء تراوغ،

الانهار تتصابى.

أما السهوب فتبتهل وتصلي ولن اسمح بعد ذلك باية مناقشة. وليقل الآخرون ما شاؤوا. ليستخرجوا مسفوط عواطفهم مثلما يستخرجون بطاقات الائتمان. فهذا شأنهم. اما أنا فسوف اظل عند اعتقادي القديم بان العواطف تندلع اندلاعاً مثلما تفعل الحروب و..

"دع الصورة تتكلم لا نريد قصصاً.."

قيظ. وسافانا، وهواء ساكن كالصهد أحسّه مُعَلقاً في سماء المكان من حولي، وأنا تطاولت واصبحت بطول القارّة.

فاضت حواسي وتمددت مثلما حدث لهمنغوي عندما ألجم لسانه المشهد فظل ذاهلاً متأملاً على استعداد لاطلاق النار على اول من ينطق بكلمة تنتهك حرمة المكان.

خيّب ظني، وخذلني ذلك الهمنغوي عندما صرفته التأملات الخائبة عن سماع الدمدمات والهمهمات والدعوات السرّية التي احدثها نسراه الصامتان الساكنان كتمثالين نحاسيين صدئين على قمة شجرة السدر حيث تركهما هناك وباغتنا بتوجيه فوهتي بندقية الصيد إلى صدغه و... بم بم... اختصر مسافة التجربة التي استكملها الصبي بوقفته تلك التي رأيته عليها هناك.

كانت كمرا المصور جوني تنازعني اللقطة فيما كنت احاول جاهداً انقاذ الصبي من براثن نسيان همنغوي، كانت عين الكامرا تحدّق في وجه الصبي بعهر. تسطو على براءته. وتغتاله.

كان ما يزال يقف تحت شجرة الدلب مستنداً إلى عصاه، يتدلى من كتفه كيس جلدي بدائي يشبه المحفظه. اغلب الظن انه لم يكن يحتوي

على اكثر من قطعة ناشفة من اللبان الصمغي، وحجاب مثلث وطوطم صغير.. وهي اشياء لم تكن تستطيع ان تقف حائلاً دون رغبة السير جون – مجهول الاسم الاول – من توجيه بندقية نحو الفتى معتبراً انه بفعلته هذه، انما يخلع على جهوده المثمرة مسحة حضارية لا شك فيها

"ليذهبوا شمالاً" قال السير جون المجهول الاسم الاول فيما هو يطلق النار دون حساب على جماعة البوشمان العراة تماماً

"ليذهبوا بأعجاز نسائهم بعيداً" قال وهو ينظف سبطانة بندقية بحبلة التنظيف...

وكانت صحراء كالاهاري في الشمال بانتظارهم.

وفيما هم يبتعدون عن اراضي الصيد التي عاش فيها اسلافهم وآلهتهم وسحرتهم، كانت خيالاتهم ما تزال حائرة عاجزة عن فهم السحر الذي يستخدمه الرجل الابيض مع تلك العصي ذات الدوي الراعد واللهيب الذي يصرع كل من توجهت اليه بانفها.

وصحراء كالاهاري كفيلة بإعادة "تأهيلهم" قال السير جون فيما هو يحصي ظروف الخرطوش الفارغة ليتمكن من احصاء حصيلته من القتلى – التي كان يسميها عملية الصيد – في ذلك اليوم.

بطلقة واحدة. طلقة واحـدة فقـط يـستطيع الـسير جـون ان يحـل اعمق الغاز كوننا.

كان المصور التلفزيـوني يلاحـق الـصبي بكمرتـه بـشراسة الـسير جون. حلقة انبوبية سوداء مفترسة ومسعورة تعمل بلا كلل. يـصوبها ثم يطلق يصوبها ثم يطلـق ومـا كـان للمـصور ان يـرى مـن الـصبي الفريسة اكثرمن القدمين العريضتين فدار بالكمرة حولهما ثم صـعد إلى الساقين فالخرقة التي تغطي ما بين الفخذين ثم إلى البطن ثـم انحـرف يساراً حيـث بـرزت الاضـلاع مثـل قفـص العـصافير يغطيهـا جلـد متقشف ليس تحته لحم ثـم اسـتدار بطيئـاً حـول الظهـر مـبرزاً الأليـة الضامرة فربلة الساق المشدودة كقوس ثـم صـعوداً إلى الاعـلى حيـث نتأت عظام الترقوة واللوح.

لم تر الكمرة مـن الـصبي غـير الجـسد. لم تـر الدهـشة في العينـين المصفرتين الرامشتين تخوفاً وانخذالاً ولا الحيرة في شبح ابتسامة هَمَّ بها ثم توقف فظلت حائرةً على وجهه. ولا الشعر الجعدي المشتبك بـادنى فروع شجرة السنط مانحاً ذلك الغّصن ملامح انسانية لا شبهة فيها.

وبلا وعي مني، رحت اصرخ:

توقف عن قتل الصبي يا ابن العاهرة. توقف اللعنة عليكم جميعاً.

كنت ممتلئاً بتلك النشوة الرعوية الطافحة بالسحر فرأيت كل شيء، وسمعت كل شيء.

رأيت انكسار الخاطر، ووجع الازمنة، وعتب الآلهة، وسمعت حفيف ارواح الاسلاف، وتعرفت على اصحابها واحداً واحداً.

جاء اولاً باتريس لومومبا فحطّ على قمة الشجرة. تبعه كوامي نكروما الذي لم يلبث هو الآخر ان ضم جناحيه واستقر إلى جانب صاحبه. نسرين متقابلين كملاكين يتأملان الافق. ثم لم تلبث ان عبرت المدى روح ليوبولد سنغور البيضاء وحطت غير بعيد من حيث وقف الصبي وقد اتخذت هيئة مالك الحزين. يا لحفيف الارواح! ذلك الصقر الذي هناك هو جومو كينياتا. اما موديبوكيتا فقد سكن بين جناحي حدأة ظلت تحلق شاهقاً.. ثم مرق كينيت كاوندا كالسهم على هيئة شاهين، وجوليوس نيريري على شكل القلق..

مرت الفيلة، ووحيد القرن، والغزلان. ومرت الضباع والسباع والذئاب.. مرّ ملتون او بوتي ونلسون مانديلا وروبرت موغابي وهيلا مريام..

رأيتهم جميعاً وعـرفتهم مـن هيئـاتهم وحفيـف ارواحهـم. كنـت مـأخوذاً بالحـضور الطـاغي عنـدما اختطفـت الكمـرا بلمـح البـصر واهويت بها على الصخر فتحطمت شظايا.

وجحظت عينا جوني البليدتان ولم يفهم ما حدث.

وفيما كنت اشعر بانزياح الجبل عن صدري، كشفت اسنان الصبي عن ابتسامة رضى؛

ففرد جناحيه وطار منساباً مثلما يفعل الباشق.

وكانت اصوات الطبول القصية المتلاشيه ما تزال تتردد في البعيد.

* * *

والآن اظن ان حكايتي مع وظيفتي قد انتهت.

ولكن لا مجال للشك عندي قطعاً بـان امـي سـوف تعـاود احيـاء علاقاتها الميتة مع اقارب بعيدين جداً وتواظب على زيارتهم مجدداً...

الخروف المحنك

وسَوس لي أحد الخبثاء ان اشتري خروفاً اعمل على تسمينه ريثما يهلُّ علينا العيد.

وكان ذلك قبل العيد الفائت.

اعجبتني الفكرة!.

وكانت الحالة قد تحسنت معي مؤخراً، وهي حالة نادرة على اي حال، فبدأت بالتنفيذ.

وقعت على خروف ضال، بدون جنسيّة، كان يتسكّع تحت اشراف احدهم على جانب الطريق.

وكأي مبتدئ احمق، توسمت النزاهة في الرجل، ورحت أسأله عن احوال هذا الخروف، هويته، سلالته، قابلياته لأن يكون خروفاً للعيد، إلى غير ذلك من الاسئلة التي يطرحها عباد الله. رازني الرجل بعينيه الضيقتين من اعلى إلى اسفل، ومن اسفل إلى أعلى، ثم راح يطنب في

تعداد مناقب الخروف ومآثر اجـداده مـن الاكبـاش، حتـى وصـل في تسلسل جدوده إلى الكبش الذي افتدى به سيدنا اسماعيل.

صدقت الرجل، واكبرت فيه سعة الافق في علم السلالات.

ثمّ، من اكون أنا لا شكك في كلام خبير يمتلك خروفاً؟!

للوهلة الاولى، بدا لي الخروف انه من النوع الاخرق الـذي يمكـن تضليله بسهولة، وتسمينه ريثما يحين موعد الفجر.

وهكذا لم أُعر تفاصيله البدينّة الاهتمام المتوقع من شخص حصيف مثلي، قليل الدينارات. فتمت الصفقة بسرعة

ديناراتي الهزيلة، مقابل الخروف الهزيل.

وهكذا عدت إلى البيت أسحبه،مع شيء مـن الممانعـة مـن جانبـه، طوراً هنا وتارة هناك، وفي نفسي من الطيش ما يدفع إلى الاعتقاد بانني قد انجزت "صفقة العصر".

ولكن الدرس الذي لقنني إياه هذا الخروف فيما بعد،جعلني اوقن بان النقود في ايدي الفقراء – مهما كانت قليلة – كفيلة بان تقـودهم إلى ايقاع الاذى بانفسهم.

بدأ الخروف ياخذ جل اهتمامي.

وما العيب في ان يكون للانسان خروف يأخذ جلَّ اهتمامه؟!
خاصة وانني شخص خال من الهموم، قنوع بالدنيا، اثق بالخراف
والناس ثقتي بكل ما هوسام ونبيل، ولا تهمني قضايا من نوع العولمة،
والديمقراطية، وحقوق الانسان، ومكافحة الارهاب، والكيل
بمكيالين، إلى آخر القائمة التي يتشدقون بها ليل نهار.

ثمّ ما شأني أنا بالتلوّث والبطالة واسعار النفوط؟؟

باختصار؛ لم أجد ايمّا غضاضة في تبني قضيّة يكون موضعها
الخروف.

غير ان أحدهم فاجأني ذات يوم بفتوى تتعلق بخراف الاضاحي،
تضع قيوداً مشدّدة على سلامة القرون والاعين وما إلى ذلك مما أيقظني
من قمة نشوتي بخروفي، وزعزع قناعاتي بالخراف، واظهر مدى
هشاشة الاطمئنان الزائف الذي كنت اعيشه مع قضيتي – الخروف.

فقد اكتشفت – وبعد فوات الاوان – أن ألية الخروف كانت
صغيرة بشكل خطير.

وعندما حاولت جسّها، من باب الاطمئنان على نسبة الضمور فيها، تحّرف ابن الحرام نحوي متوعداً بقرنيه، ورمقني بنظرة تقدح شرزّاً لاكتشف انه بعين واحدة!!

كما لاحظت، لاول مرّة ايضاً، ان الندوب والشروخ والتقرحات تملأ قرنيه وعرنينه مما اطاح بالبقية الباقية من آمالي.

وبعد تقليب الامر على مختلف الوجوه، تبيّن لي ان الخروف اللعين كان على دراية تامّة بهذه العيوب التي تعفيه من الواجبات المترتبة على صلاحيته كخروف للعيد.

كان لئيماً محنكاً استغل غفلتي وجهلي بالفقه، وراح بوسائله الخبيثة، يدمّر بمنهجيّة مدروسة، عناصر واشتراطات واستحقاقات صلاحيته كخروف.

فكثيراً ما كنت اراه يحك قرينه بالجدار ليحدث كل هذه الندوب والكسور التي سيتحجج بها مستقبلاً للتملص من واجباته.

كنت، لسذاجتي وحسن نيتي، اعتقد بان ممارساته تلك هي مجرد تمرينات "خروفيه" (ام هي خرافية يا ترى) بريئة.

ولـو كنـت شـككت في نوايـاه المبيتـه، لا تخـذت الاحتياطـات والاجراءات الضرورية (كـما يقولـون) وسـحبت البساط مـن تحـت قدميه، ورددت كيده إلى نحره...

ولكن ما جدوى لو؟؟.

واكتشفت ايضاً ان "الريجيم" القاسي الذي كان يفرضه ابـن الحـرام على نفسه، لم تكن غايته الرشاشة وتناسق التقاطيع، كما لم يكن من بـاب التعفف او التقـشف وضـبط الانفـاق، وانـما هـو خطـة محكمـة حـاك خيوطها ونفذها في الظلام في غفلة مني، أوصلت إليته إلى الحد المخجل الذي وصلت اليه.

جعلني هذا الخروف على قناعة مطلقة، بان (نظرية المـؤامرة) التـي يرفضها البعض، هي في الحقيقة، المنطلق الصحيح لتفسير كل ما يدور حولنا من مظاهر سياسية تستعصي على التصديق.

فقد كانت الطامة الكبرى، يوم اكتشفت، بمحض الصدفة، واثنـاء استقصائي لعيوبه الشرعية، بان ابن الحرام ذاك، لم يكن خروفـاً... بـل خروفة.

غلاء مزعوم

صديق قـديم، موظـف سـابق وكحيـان، احيـل إلى المعـاش منـذ سنوات

تجده دائماً متسمراً امام التلفزيون – ابيض واسـود – يعـيش حيـاة ابطال المسلسلات، حتى اذا ما سمع الاذان، قـام فتوضـأ، وتوجـه إلى المسجد.

واثنـاء عودتـه، يتمهـل في سـيره، يتأمـل المحـلات التجاريـة، ويستعرض محتوياتها ويواصل طريقه إلى البيت.

لا يشتري شيئاً ولا يبيع.. فليس في بيته شيء يصلح للبيع...

يتوزع معاشه التقاعدي بين نفقات شرعية، وأخرى قـضائية. فـلا يتبقى له بعد ذلك من متاع الحياة الدنيا سوى سبعة عشر ديناراً فقط لا غير.

وهو يجيب على من يتساءل عن كيفية العيش بهذا المبلغ الزهيد بقوله: بان لديه كنزاً اضافياً موروثاً لا يفنى، يصرف منه.

ولدى التدقيق في الاتجاه الذي يذهب اليه كلامه اللاحق عن كنزه المزعوم، يتبيَّن لك انه القناعة!!.

الله يجيبك يا طولة الروح...

معثّر، وساخر، ومتهور في كل ما يتعلق بمسألة المحافظة على مظاهر الكرم. ويؤمن ايماناً راسخاً لا مجال فيه للمساومة بان ما أخذ بالقوّة لا يسترد الاّ بقوّة اعنف ويصف المفاوض على الحق دون قوّة تسنده بانه يشبه آكل العظام دون اسنان..

عمليّة تطبيع العلاقات مع ضنك العيش التي تسيرمعه دون عقبات، حوّلت اليأس عنده إلى تفاؤل. (ولو انه غير مبرر ولا معقول). ولكنها تركت آثارها على هيئته التي تعيد إلى الذاكرة فقراء الهند ايام الحكم البريطاني. وخصوصاً غاندي الذي أخذ عنه حكمة التأمل وانتظار الفرج.

فهو على سبيل المثال، واثق من انه سيربح الجائزة الكبرى في اليانصيب ذات يوم لا بد آت.

ومع انه لم يشتر في حياته ورقة يا نصيب واحدة، لضيق ذات اليـد، الا انه مثابر عنيد على متابعة اخبار نتائج السحب اولاً بـاول عـسى ان يكون الحظ قد غافله، وجاء يطرق بابه هذه المرّة!.

وبالتالي فهو يجب ان يكون هناك. بانتظار الحظ.

وهو يقول في تفسير ذلك:

"ولم لا؟؟. فان من عادة الحظ اذا ماجاء، ان يفلق الصخر".

عيبه الوحيد، كامنٌ قي حبّه للمعارضه والجدال. ولا يطيـق سـماع كلمة "الغلاء" أبداً.

فهو يأخذ على الناس ما يسميه "شكوى غير مبررة" أثناء حديتهم عن الغلاء وارتفاع الاسعار.

يقول محتدّاً وهو يضرب بجماع قبضته على الارض.

"اين هو هذا الغلاء الذي تتحدثون عنه؟؟ أنا لا أرّى اي غلاء.

وأنا الآن آراه محقاً في هذا.

اذ كيف يشعر بالغلاء من لا يقدم على شراء اي شيء؟؟

اي شيء البتة؟؟؟.

ديوك لا تصيح

أنا منحاز في موقفي لصالح دجاج ايام زمان.

ولن اتزحزح عن موقفي هذا حتى لـو توقفـت الادارة الاميركيـة عن انحيازها لاسرائيل ومن لف لفها.

ولا أُبالي اذا ما اتهمتموني بالرجعية او التطرف او حتى بالعنـصرية والكيل بمكيالين!!

سمّوني ما شئتم

فهذا قراري الذي لا رجعة فيه.

اقول لا. ولا بالتأكيد. لا مساومة ولا انصاف حلول.

موقفي ثابت ومعلن ولا رجعة عنه.

نعم.

منحاز لدجاج ايام زمـان، بعـدما آلـت اليـه احـوال دجـاج هـذه الأيام:

يحصرونه بحالة مزرية، في اقفاص مكتظة تخلو من المرافق، وتفتقر إلى الحد الادنى من شروط العيش الكريم، بانتظار ان يأتي الدور على هذه الدجاجة او تلك لتاخذ طريقها المحتوم إلى حد السكين، ثم النتّافة..

دجاجة ايام زمان، كانت تقيم الدنيا وتقعدها قبل ان يتم إلقاء القبض عليها.. لم تكن تستسلم بسهولة:

تثب هنا. وتطير هناك. تراوغ وتصيح وتقاوم بكل الوسائل الممكنة قبل ان تتم محاصرتها والقاء القبض عليها.

دجاج هذه الأيام يتفشّى في صفوفه التخاذل والخنوع والاستسلام.. لا يعرف الاّ الاكل.. يأكل ويأكل ويواصل الاكل حتى اثناء الليل!

يضللونه بمصابيح الفلورسنت الكشّافة يسلطونها عليه فيختلط عليه الامر، حتى ليخال ان منتصف الليل هو عز الظهيرة!

ألم اقل لكم ان التضليل لا يعرف الحدود!!.

حتى اذا ما سمن، وآن اوان الذبح؛ اصطف في طوابير تنتظر الدور

ليؤول امره في النهاية إلى الثلاجة، حيث يتكدّس الجميع ذكوراً واناثاً عرايا - ملط لا يستر سوءاتهم شيء!

حالة مزرية.

بالفعل هي حالة مزرية تلك التي صارت اليها امور دجاج هذه الأيام.

زمان.. كانت القيم واضحة. والادوار محدّدة. فالديك هو الديك والدجاجة هي الدجاجة:

يصيح الديك، فيخشع لصيحته جمهور الدجاج على بعد فرسخ من الدار..

ولم يكن الديك يستأثر نفسه بشيء أبداً... يقوقئ اذا ما عثر على شيء. فيلتئم الجمهور حول الوليمة. حيث الجميع سواسية في الحقوق، لا فرق بين "صوص" و"قرقّة". وحيث النزاعات تُفَضُ بروح الاسرة الواحدة: نقرة هيّنة، او خفقة جناح واحدة من الديك، تعيد المتحفزين للنقار إلى جادّة الصواب لتنتهي المسألة دون اصابات. ويأخذ كل ذي حقه دون توسط، العرف هو السائد. وشعاره العدل والمساواة.

ديوك هذه الأيام لم تعد تصيح حتى لمجرد التوقيت، بعد ان تغيّر نظام المواقيت وصار يخضع للاعتبارات السياسية. او حتى لمجرد الاعلان عن ميلاد يوم جديد مع انحلال غبش آخر الليل!

وبالكاد، نستطيع التمييز بين الذكر والانثى، لولا تلك الزائدة العرفية الحمراء فوق بعض الرؤوس.

وقناعتي ان ديوكاً هذه حالتها: لا تغضب، ولا تتمرد على هوانها، لن تكون لها كلمة مسموعة بالتأكيد.



ابو العلاء يبيع البطيخ

لمحت، من بعيد، معرّش البطيخ على جانب الطريق فقلت لنفسي: "اشتري لي بطيخة".

وما العيب في ذلك؟

البطيخ مطروح للبيع، ومعي ما يكفي من النقود.

ركنت ركوبتي، الفيات ارجنتا 2000 سي سي لون بيج ومكيف معطل، جانباً؛ وترجلت امشي الهوينى، حفيف الوطء، قاصداً عريش البطيخ.

وهناك وجدته.

ابو العلاء.

نعم. ابو العلاء المعرّي نفسه!

بعماه، ولزومياته، وفلسفته، و... بطيخه.

كان قد اوقد ناراً وجعل حولها أثا فيَّ وضـع فوقهـا ابريـق الـشاي الالمنيوم الأسود، وجلس ينتظر.

وكان يبيع البطيخ.

في البداية، لم اصدق عينيّ.

ودار في خلدي انه ربما هُيِّىء لي. وانني واهم او حالم، وانه سـبحانه يخلق من الشبه اربعين. فبادرت الرجل قائلاً:

حسبتك والله ابا العلاء للوهلة الاولى:فانت تشبهه الخالق النـاطق فقاطعني:

- بل أنا ابو العلاء نفسه.

فاسقط في يدي. (واحمد الله انها كانت ما تزال بعْـد فارغـه لم تبـدأ بمعاينة البطيخ بعد).

كيف؟؟! قلت.

ثم اضفت مؤكداً حيرتي:

الم تمت منذ مئات السنين؟

قال: بلى. ولكنني حصلت على اجازة خاصة، وجئت اطمئن عـلى حال الدنيا وما آلت اليه الامور من بعدي.

هذا من أعجب ما سمعت.. من اللزوميات إلى بيع البطيخ؟؟ على الاقل، في حال عودتك إلى الدنيا كما تزعم، يفترض أن تحل ضيقاً على مجامع اللغة او بيوت الشعر، او الاكاديميات الكبرى، اوالصروح والعواصم الثقافية...

فقاطعني باشارة من كفة بحركة جانبيه، توحي بالاستهانة ونفاذ الصبر، وتغي عن اي كلام. فهمت منها انه يريد ان يقول:

"دعك من كل هذا يا صديقي".

فاستبد بي الفضول،امام هذا اللامعقول، وقلت:

وللي يرحم والديك يا معوّد، بدي جواب محدد. كيف وصلت إلى هذا الحال؟.. فتنحنح، وقال:

"بعد عودتي بيومين، قضيتهما متسكعاً بين صويلح وراس العين، اشتدبي الجوع وحاجات الجسد، وهو ما لم يكن قد دار لي في خلد، تفرست في وجوه الخلائق فالفيتها حائلة، كمن حلّت بهم نازلة. ولم أر الاّ الدخان والأوُار، كانكم مصابون بالسُّعار. فاصابني ما يشبه الدوار... جعت. وبلا طول سيرة، طفقت ابحث عن شيء من الميرة.

فقيل لي انه لا بد لي من وظيفة، تؤمن لي لقمة نظيفة.

وقدمني بعضهم إلى محتسب يقال له أمجد، يظنني فحمة، ويظن نفسه فرقد. فاخضعني لما يسمونه الاختبار، مع نفر من الفَتية الابرار.

قرأت السؤال، وفهمت المقال، وشرعت ادوّن على القرطاس ما جادت به القريحة، فكانت نتيجتي فضيحة.

اختلط على الامر بين الطبري وجامع البيان، ودليلك إلى افخم الفنادق والمطاعم في عمان.

باختصار يا صديقي، رسبت في الامتحان، وكان ما كان. ورقّ لحالي نفر من المارّة، فتصدقوا علي بدريهمات استثمرتها في الاتجار بالبطيخ، باعتباره المدخل الصحيح إلى فلسفة التاريخ.

وها أنا كما ترى... ايد من قدام وايد من ورا...



صبيحة يوم عادي جداً

استيقظت في الصباح على رنين الهاتف وفي رأسي ضجيج مدينة تدفق عليها الناس من الضواحي.

صهيل خيول، ورغاء جمال، وطبول حرب، وكل الخيبات وسوء الطالع الممكن تصوره مما جاء به الامس، كلها تدمدم في رأسي كشاعر أياسه العثور على مطلع القصيدة.

وكانت السماء قد ادلهمت وهي توشك على الانفجار.

تطلعّت في وجهي في مرآة الحمام، فطالعتني قطعة من الارض البور متروكة للاهمال.

احياناً، ويا للعجب، اسمع وشوشات قصية المأتى كأنها أجراس نائية. تخفق كالجناح بعبارة رشيقة تنساب كالحرير. فاروح اتلذذ بمذاقها كمن يتمطق برشفة من النبيذ العتيق. سمعتها في ذلك الصباح

للحظة، ولكنني سرعان ما نسيتها امام الفرشـاة التي راحـت تحـرث اسناني جيئة وذهاباً.

لست اعرف سبباً واحداً يجعل فرشـاة الاسـنان تـستبد بالواحـد، عارضة حضورها اليومي، كأول شيء يلامسني من الداخل!

انها واحدة من سلسلة الاشياء القبيحة التي تـستمد سـلطتها مـن استسلامي لمفردات عالم قبيح يقف لي بالمرصاد.

هكذا بدأت افكر امام المرآة.

ووجدتني اهمس.

"ما اكثـر الـذين يجوبـون ايامنـا جيئـة وذهابـاً كفرشـاة الاسـنان يحرثونها بالطول والعرض ليستنبتوا خبائثهم في ارضنا.

شعرت بشي من الامان للحظة، فهمست لقريني الذي يقـابلني في المرآة:

أنا مشوش..

فردّ علي ضاحكاً:

ومن سمعك.

طال الصمت بيننا حتى انني لم اعد ارى قريني في المرآة. وبدأت افكر على النحو التالي:

هذا الآخر حالته ميئوس منها تماماً. كل ما يفعله هو مجرد ظلال باهته لهواجس خائبة اقوم بها أنا، فيعيد هو تمثيلها امامي.

ومع انني لست فاسداً، او هذا ما اعتقده على الاقل، فانني كثيراً ما أحاسب نفسي.

واليوم بدأت احاسبها امام المرآة بقسوة.

وفي لحظة،

فوجئت به يخرج من المرآة، ويقف في مواجهتي مكفهر الوجه ثمّ... صفعني وعاد إلى المرآة واختفى!!

والآن؛

قولوها بصراحة انكم لا تصدقونني.

ولكن،

ما الذي ينفعكم أن تكذبوني، اذا كنتم تصدقون كل هذه الهستيريا التي تجري امامكم كل يوم موثّقة بالصوت والصورة؟؟!

حفيدي والفيديو كليب

كنت انتظر الرحلة القادمة في قاعة الاستقبال في المطار.

وكان المستقبلون قلة يعدّون على الاصابع. فاتخذت لي مقعداً تصادف انه قريب من اثنين كانا مشغولين عن كل ما حولهما بحديث خاص.

فوجدت نفسي – رغماً عني – استمع لما يدور بينهما.

بعد ان افرغ الاول كل ما في جعبته من مكرور الكلام عن سوء احوال السوق ختم قائلاً:

– السوق نائم. يمر النهار احياناً دون ان نبيع ما يغطي كلفة الكهرباء. فرد الاخر ببرود واضح.

– هذا لأنك تيس. لا تعرف فلسفة التسويق.

– بعد اربعين سنة متمرغاً في السوق تقول بانني تيس؟!

- بالطبع. والا لما كانت هذه حالتك.

- وماذا تريدني ان افعل

- اقلب المحل. جدد الديكور... تحرك..

- فعلت. بلا فائدة.

- اقول لك اقلب المحل. إخسر على الديكور. رتب البضاعة. وضع على القطعة التي ثمنها ثلاثة دنانير سعراً بمئة دينار. ضع لا فتة السعر محدودة في مكان بارز وتجاهل اسئلة الزبون ولا تتنازل. وسوف ترى...

- رأيك معقول.؟؟

- هو العقل بعينه... فانا احدثك عن تجربة..

* * *

عند هذا الحد، وجدتني احدق في الفراغ لا أرى شيئاً، مأخوذاً بما اسمع.

ولأن عقولنا في حالة الاسترخاء (حتى لا نقول في سائر الاحوال) لا تضع ضوابط على اتجاه الكلام، فقد وجدتها بقدرة قادر ينتقلان إلى

الحديث عن الفضائيات والاعلان والفيديو كليب. وكان صاحب الاقتراح يتدفق حماسة لواحدة من مطربات هز الوسط والقفا باعتبارها تلعب دوراً تاريخياً (بارز) الاهمية في تعميم الثقافة الفنية.

وراح يؤكد – بلغة السوق والسوقة – ما معناه:

بان هذه المطربة بالذات، قد نحت بهذا النوع من الفن إلى مسارات لم يحلم بها أحد من الاسلاف.

بصراحة؛

داخلني شعور بالاتّضاع. ووجدتني اقارن بين ثمن الحذاء والامتهان الذي تتعرض له اغنى دوريات الادب واكثرها رصانة. وللحظة، احسست بوحشة العزلة التي سرعان ما تحولت – وياللعجب – إلى حس داخلي بالاستخفاف بكل ما حولي.

ولدى عودتي إلى البيت احسستني اطير في فضاء مثقل بالاسئلة. ولم أجد من ابثه همومي سوى حفيدي الذي اتم السنتين قبل أيام.

هو متعلق بي باعتباري ذلك الشيء المتسامح الذي لا تنضب مفاجآته. اتفهم مشاريعه الخاصة، واغض الطرف عن مهماته التي لا

تنتهي باختبار وتفحص كل محتويات مكتبتي واعادة توزيعها بمعرفته الخاصة.

علبة سجائري تجد طريقها إلى الحذاء لتستقر فيه كمكان مناسب، والمقلمة بها حوت، لا بد لها ان تكون تحت القدمين. اما بقية فنجان القهوة، فنصفها مرسوم حول شفتيه مثل شاربي سلفادور دالي، ونصفها الآخر مرشوق بعناية بين دفتي كتاب الملل والنحل لابي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني لمن اراد التوثيق. أن إعادة توزيع الأشياء هي واحدة من المهمات الكثيرة التي يتقنها صاحبنا؛ أو يتباهى بانجازها، باعتبارها تدخل السرور إلى نفسي.

ذات مرّة، بينما كان مطروحاً على ظهره متحللاً من اثقال الحفاظ، فوجئت بنافورة تنبثق من بين فخذيه وتغمر وجهي بالماء، فاجفلت، وشتمت والديه، فاغرق في الضحك.

زبدة القول:

ما إن جلست لدى عودتي إلى البيت حتى هب لاستقبالي، وأخذ مكانه فوق ركبتي، وراح يتفحص وضع نظارتي، مصّراً على أنها تليق به أكثر.

قلت له:

- تعرف يا صديقي، لا أحد يستمع اليّ ويتفهمني خير منك.

- انت ترى ان هـذه الفـضائيات – واشرت نحـو التلفزيـون – تسهر على ترويج الثقافة الـسوسيو هز وسطيّة" وتقوم بواجبها كاملاً. فرمقني بنظرة متعددة المعاني وقال موافقاً.

- مم.

شجعتني ايجابيته فأضفت.

- وانت ترى انهم يستلهمون آخر مـا وصـلت اليـه تكنولوجيـا التبضيع لايصال هذه الرصانات إلى كل بيت.

وهنا انصرف عن الاستماع لتهافـت مقـالتي، ونفـض يديـه مـن حالتي التي بدت له ميئوساً منها، فترجّل منزلقاً من بين احضاني وبـدأ يسعى في ارجاء الصالة، مواصلاً جولاته التفقدية، ونشاطاته المنهجيـة في تكسير ما تيسر له مما يصلح للكسر، عندما ظهـرت تلـك المـستورة فجأة على الشاشة، وتدفقت بغناء اشبه بالثغاء مقرون بـابراز واهتـزاز القفا.

وهنا وجدت صاحبنا يقف مبهوتاً، مؤجلاً كل نشاطاته، وراح يحدق في الشاشه، مثقل البنية التحتيه بالحفاظات، إلى درجة "البهدلة".

وجهت له دعوة نصوحاً للعودة إلى مقعده المفضل في حضني فقابل دعوتي بالاهمال الذي تستحق، وظل مسمّراً امام الشاشة، ضارباً بكل وعودي وعروضي عرض الحائط. معرّضاً علاقتنا الثنائية لخطر لا تحمد عقباه.. وهو موقف – بصراحة – رخيص أُسجله عليه على أية حال.

حاولت ثنيه عن موقفه المتعسف ذلك بالاقناع والحوار العقلي، ولكنه ظل يتجاهلني بشكل مزر، وبدلاً من الالتفات لنواياي الطيبة، راح يرفرف بساعديه مقلداً رقصة تلك المستورة – نموذجه الثقافي. وهنا وجدتني اصيح به.

– ويحك.. انت ايضاً سرت اليك العدوى يا كلب.

لم يعرني ادنى التفات. ظل يحدق في الشاشة ولكنه رد لي الصاع صاعين. قال بلا ضغينة وبدون ان يكلف نفسه عناء الاتفات النحوي.

– كب.

وبينما كنت في ملاسنة صاخبة مع صاحبنا ذي الحفاظ المثقل، عادت امه من السوق تحمل له بنطالاً بطول شبر، قدرت انه قد يصلح لقط، وراحت تستعرض جماله امام عيني متسائلة ببراءة:

الا تراه يستحق الخمسين ديناراً بالفعل؟.

فوجدتني اجيب.

ولكنه لا يساوي اكثر من دينارين. اراهم قد خدعوك.

فردت بجفاء.

السعر محدود، ولا مجال للخداع.

اما صاحبنا، فقد كان في تلك الاثناء يمسك بالبنطلون بكلتا يديه، محاولاً ادخاله في رأسه.



إثنان في واحد

... وبعد كل الذي حدث، صار من العسير عليّ الجزم بانني هو أنا نفسي.

فعند مفترق الطرق، أجدني اتوزع في اثنين:

هو يمشي في الطريق الايسر، وانا آخذ سبيلي إلى الايمن.

وعبثاً تذهب محاولات كل منا في اقناع الآخر.

أنا مهادن بطبعي:

استسلم للواقع الموضوعي وارضى به على علاته.

أما هو

فيقصيه جانباً مثلما تركل بطرف حذائك حصاة عن الطريق. وربما يطويه تحت إبطه ويواصل طريقه إلى الضحك!

هو، متهور. لا يعرف الخوف باكثر مما تعرفه شجرة السفح تلك، معلقة فوق الجرف ومهددة بالسقوط. ولكنها تتشبث بجذورها

أما أنا فاعيش في داخل الخوف، واواصل الهربَ مثل مـن يـركض في الحلم.

لا مجال للمقارنة بيننا الآ لدى من وّهبوا طـول البـال مـن اولئـك السعداء المعتادين على عقد المقارنات حتى بين الفيل والبصلة..

المشترك المؤكد الوحيد فيما بيننا هو هذا اللا مستقبل الذي ترون.

سألته ذات مرّة عن هذه المسألة فقال:

– وأي مـستقبل لتلـك الخـشبة التـي يقـف عليهـا المحكومـون بالاعدام؟

– أما من وسيلة ما؟؟ سألت.

فقال:

– لا.

قلت:

– دعنا نبحث عمن نسأله، اعني واحداً يكون هو نفسه ويمكـن ان يفيدنا بشيء. فقال:

– هؤلاء نادرون للغاية في زماننا.

يومها حدقت فيه عاجزاً عن الكلام، ثم دخلت غرفتـي واقفلـت على نفسي الباب.

وهناك؛

وجدته امامي يخشخش بحلقة مليئة بالمفاتيح!

* * *

قريني هذا تسبب في فشلي في جميع المهن الآمن ثلاث.

حارس للقبور،

ومصلح للساعات العتيقة،

وخرّاز.

أما هو فلم يحاول الآ مهنة واحدة مَهَرها واخلص لها:

مهرّج في السيرك..

* * *

كنت ارفع رأسي عن ساعة الجيب او عـن المخـرز، فـاراه ببنطالـه الفضفاض وحذاء المهرج الضخم، يتلهّى باعادة توزيـع المـشاكل بـين السعادين.

أتأمله بصمت.. واتنّهد.

وهنا يرد على السؤال الذي يدور في خاطري قائلاً.

- نعم. ثمة اثار من الحقيقة حيثما التمستها. حتى في هذا الشيء.

ثم يقذف بالحذاء جانباً. ويواصل الكلام.

- اما ديوجين، صاحب القنديل الذي تعرف، فلا اظنه الآ كان اعمى.

من جهتي تعودت ان اقدم نفسي للآخرين بابسط الطرق:

اسلم على الشخص، ثم اضع يدي على صدري واقول "انا فلان" ولا أجد لي الآ وجهاً واحداً افصح به عن نفسي..

اما هو فيكون منصرفاً في تلك الاثناء لتعقب الرموز والاشارات وتبديل الاقنعة..

تقول انه طائرة تجسس بدون طيار عليه اللعنة. يستخدم كل ما يعرفه الشيطان من حيل لكي يظل مفارقاً ومتوارياً عن الانظار..

سئمت منه.. سئمت منه..

الى اين افر منه؟.

وكيف لي ان استرد حريتي؟.

هل اقتله فاخسر نفسي؟.

ام استدعي قوات المارينز لتعينني عليه؟!.

سئمت.



شيخوخة

تقدمت في العمر.

توغلت كثيراً في رحلة الحياة وقلت رغبتي في الكلام.

نعم.

صرت في سن الشيخوخة، وصار كلامي نادراً الاّ مع الاطفال والحيوانات.

أحدهم – لا اعرف رقم موبايله ولا عنوانه الالكتروني – صاغ هذه الحالة بعبارة جامعة قال:

"كلما اتسعت التجربة ضاقت العبارة"

ذروة التراجيديا في محراب الصمت هذا، المسها عندما أجد عقدة لساني تنحل تلقائياً مع احفادي.

أجدني انطلق مع هؤلاء في حديث جدي، وهمس يشبه النميمة،

نتبادل الشكوى حول ما يتعرضون له من محاذير وممنوعات، وما يعانونه من مضايقات الحمقى الكبار.. الآباء والامهات.

- يا لهم من حمقى!

- لاي شيء خلفت اليدان اذا لم نلعب بهما؟

- ذلك صحيح. وللدفء ايضاً

- ولا نلمس بهما الاشياء الحادة لانها تجرح.

- اليس كذلك؟.

حديث الند للند يدور بين الجد والحفيد، مثلما تطعم عصفوراً من راحة يدك.

ويستمر الحديث بنفس الوتيرة، حتى اذا ما هرع الصغير لمشاغله الخاصة، انسحبت إلى محراب الصمت.

* * *

متعة التأمل واستعراض الخسارات في فترات الراحة المتقطعة عند من وصلوا إلى نهاية الرحلة، هي مبعث صمتهم بعد ان شارفوا على الوصول إلى المحطة الاخيرة.

هذا هو الجانب الساحر في المسأله.

فماذا عن الوجه الآخر؟.

الجاد؟.

وجدت الحل.

الحل المنطقي لهذه الدراما هو ان يبدأ الانسان حياته عجوزاً حكيماً ثم يبدأ العمر بعد ذلك بالتناقص تدريجياً إلى ان يعود طفلاً.

وهو كما ترون، حل معقول وفذ، لولا بعض الهناة والمآخذ الصغيرة وبعض الصعوبات التي تكتنف "آلية" التنفيذ.

شخصياً

أتصرف بحكمة طفل في السادسة... والستين.. وعلى علاقة وطيدة بالعديد من القطط الضالة السائبة حول البيت.

* * *

كنت بالامس، اجلس على مقعد خشبي، أتأمل مستغرقاً في شكل طرف مقدمة حذائي – وهو شيء قلما نلتفت لممكنات التأمل فيه – عندما مرّ بي واحد من القطط كان يسير الهويني. فتوقف لدى دعوتي له لتجاذب اطراف الحديث، وراح يتأملني بغباء. ويالبؤس القطط عندما تكون غبيّة، ضيقة الافق، قلت له:

- ما شأنك يا صديق؟ ألا تراني جديراً بالثقة؟!

بَرَم ذنبه يميناً. ثم عاد وبرمه يساراً، واستمر يحدق في وجهي صامتاً.

- يا رجل انا ادعوك بحسن نيّة.. الم تسمع بمبادرات حسن النية؟. وبدلاً من ان يرد مثلما يفعل سائر خلق الله، واصل برم ذنبه يميناً ويساراً.

- اراك عازفاً عن الكلام.. عسى الاّ تكون قد فقدت احد اصدقائك.. عسى ان يكون المانع خيراً.

فظل مصراً على موقفه المضرب على الكلام ولم ينبس ببنت شفه.

قلت في نفسي، يا ولد، اللي ما بيجيش معاك تعال معاه. وقمت من مكاني لاعاين المسألة عن قرب.

فتبين لي، بعد ان وضعت النظارات على عيني، انه قط هرم جداً..

هتفت: بِسْ.

فلم يرد.

لم يسمع لانه مصاب بالصم.

السؤال الذي أرّق البشرية

عثرت – بمحض الصدفة – على اجابة على السؤال الابدي، السؤال الدائري عن ايهما جاء اولاً: البيضة ام الدجاجة!

حدث ذلك من خلال التامل الفني الصرف بمسألة من له الاسبقة على الآخر: الارهاب ام حروب الابادة الجماعية.

فالرواسب المتحصلة عن ترويق كلا السؤالين واحدة. ولهما نفس الدلالة.

من الزاوية الفنيّة الصرفة نلاحظ، دونما عناء، ان الحرب تكون بطبيعتها حبلى دائماً.

حبلى ومحتقنة بشتى الاحتمالات. ولابد للحبلى، طال الزمن ام قصر، من ان تضع مولودها.

وهو في حالة الحرب يكون مجهول الاب. "ابن حرام يعني" واذا ما تعمقنا بالمسألة من هذه الزاوية سنكتشف ان الحرب بطبيعتها مؤنثة

لغوياً. اعني انها انثى من النوع الذي لا يضبطه اي ضـابط لغـوي ولا يضمن انوثتها الا اتقان كافة الاطراف المعنية

وان سائر متعلقاتها مؤنثة ايضاً: كتيبه، سرية، قيادة، معركة، رحى، موقعة، مواجهة، مقاتلة، قاذفة، ناقلـة، حاملـه، نفاثـة، راجمـة، دبابـة، كاسحة، ونادراًما يعثر المرء على مذكر واحد بين كل هذه البلاوي.

مذكر واحد بين كل هذا التجمع اللجـب، عثـرت عليـه بمحـض الصدفة هو "الصمود".

وحتى هذا تلتبس ذكورتـه بمعنـى البـسالة. وهـي مؤنثـة. ذلـك بالطبع إلى جانب الجندي. واعني به ذلك القتيل الذي يدفع ثمناً لشيء لا يملكه ولا يعرف ما هي حقيقته اصـلاً، ويمـوت وهـو يـئن "آه يـا أمي" دون ان يرفّ لاساتذة الارهاب، الذين تواصل آلاتهم الجهنميـة حصدها للارواح في صحوهم ومنامهم، جفـن. وعنـدما سـأل أحـد جنود المارينز: لماذا أنا هنا؟ وكيف تتوقعون منـي قتـل الآخـر دون ان يحاول الدفاع عن نفسه بقتلي؟

تهرّب هؤلاء من الاجابة قائلين:

نحن لا نريد العودة إلى سؤال البيضة والدجاجة..

كانت الصورة التلفزيونية واضحة ومعبّره. وكان مزاج المراسل رائقاً فاعجبني هذا التشبية البيلغ، وسحرتني حصافته - التشبيه وليس المسؤول - وسرعان ما وجدت نفسي متورطاً بفضول مستحكم حول ايهما اولاً بالفعل: البيضة ام الدجاجة. وذلك بعد ان نسيت نهائياً مسألة الارهاب والحرب على الدول المارقة!

وجدتني مأخوذاً بقضية بدت لي مصيريه فعلاً، لم يحسمها علماء الكلام عندنا.

بدأت افكر على النحو التالي:

لابد ان تكون احداهما سابقة على الاخرى. انها الدجاجة اولاً. ها ولكنها جاءت من البيضة.. البيضة نفسها جاءت من الدجاجة... استغرقتني المسألة شهوراً من هذا التفكير الدائري فاضطربت احوالي وتدهورت وظلت تتفاقم حتى ان ام العيال صارت توظني من النوم وهي تحوقل وتبسمل ضاربة كفاً بكف "الله يقطع الدجاج واصحابه.. عن اية دجاجة تهذي في منامك يا رجل"؟.

وظلت هذه حالتي إلى تبرع احد ابناء الحلال بارشادنا إلى شيخ مبارك يفك العمل، فقرأ على رأسي. واخذ المقسوم.

وفي تلك الليلة حلمت بشيخ جاءني في المنام، وكشف لي عن المحجوب وراء عجز الطين عن الفهم، ووراء العقل المحدود، فرأيت الجواب رأي العين.

ويا له من جواب مريح وجميل وواضح وضوح اهداف اميركا من غزها للعراق!! يا الهي كم كنت سعيداً منشرح الصدر لهذا الكشف. وكم بدا عالمي جميلاً ميسراً بعد ان اشبعت فضولي وانحلت عقدتي وعرفت ايهما الاسبق البيضة ام الدجاجة. كان حلاًّ في غاية السهولة غفلنا عنه جميعاً. كنت سعيداً.

وقررت ساعتها ان اعلن الجواب على العالم لافوز بقصب السبق في ميدان لم يسبقني اليه احد من قبل قط.

وعندما استيقظت في الصباح.. اكتشفت انني نسيت الحل!!

حاولت، جاهداً، اعتصرت ذاكرتي بلا فائدة.

ادعو اساتذة الارهاب الحقيقين الذين يسجلون على الناس حتى احلامهم ان ينتبهوا لاحلامي جيداً ويسجلوها. فقد يعاودني الحلم مرّة أخرى ونضع حداً لسؤال مصيري ما يزال يؤرق عقول البشر...

فانا عائد إلى النوم مرّة أخرى.

الشيطان يطلب حق اللجوء السياسي

ليلة أمس التقيت بالشيطان!!

نعم. الشيطان نفسه بعصاه الثلاثية الرؤوس، وقرنيه الحادين، وظلفيه اللذين يشبهان ظلفي الماعز، وذيله الملتوي المنتهي بالسهم الشيطاني المميز. حتى انني لم اكن بحاجة للتأكد من اوراقه الثبوتية.

كان هو نفسه بذهنه اللمّاح وقلقه.

وكان يتأبط ملفاً سميكاً محشوّاً بالاوراق، وكان حزيناً منكسر النفس. سألته:

خير ان شاء الله. ما الأمر يا أبا شياط؟

فقال: والله، يا أخ ابراهيم، قررت الاستقالة.

فقلت: وتتركنا لضلالتنا الخاصة؟

فقال: عالمكم هذا لم يعد يطاق... وانت ترى ضيق ذات اليد و..

كان، وهو يتحدث، ما يزال يحتفظ بصرامته الاخلاقية المعروفة.

قال: هل رأيت عصا ليس لها الاّ طرف واحد؟. هل رأيت حبلاً او سطراً او تعباناً بطرف واحد؟؟.

قلت: هذا هو المستحيل بعينه.

فقال: عالكم كذلك. عالم بطرف واحد يستحيل العيش فيه، ثم اضاف وهو يتنهد.

كنت فيما مضى اقتات على تناقضات توازن القوى، أجد لي نصيراً هنا او وسيلة هناك. وكان وقتي مليئاً وعملي متوفر.. كانت مستورة والحمدلله. اما الآن، وفي عالم القطب الواحد، والتخصصات الجارحة كالشفره، فلم يعد ثمة مكان للفلسفة، ولم يعودوا يعترفون بكفاءتي.

كان يتحدث بمرارة لم تستطع كبرياؤه القديمة اخفاءَها، ولكنه حاول ان يبدو متماسكاً..

لا أكتمكم سرّاً، حزنت لحالته فقلت له ناصحاً.

لعلك يا صديقي واجد لدى احد القوى العظمى من يقدر كفاءَتك وحسن تدبيرك، فترد اعتبارك في عالم لم يعد يقيم وزناً للعبقرية.

وهنا وجدته ينهار، وينخرط في بكاء مرير.

فبدأت اواسيه بالطريقة التقليدية: "معلش، بتهون، بدك تطول بالك.. الخ"

فقال: بالامس، فكرت بطلب حق اللجوء السياسي. لبست الزي التقليدي الذي يكسبني هيبة تليق بشيطان: العمامة فوق العقال، والعباءة فوق السروال، وانتعلت حذاءً متسورداً يناسب حافري، وحملت هذه الوثائق التي تراها، وذهبت إلى حيث يطلبون حق اللجوء السياسي. فادخلوني على المسؤول..

وهنا قاطعته بدهشتي التي لم استطع معها صبراً وقلت متعجباً.

"شيطان يطلب حق اللجوء؟!! أإلى هذا الحد من العطب وصلت امور عالمنا؟؟"

فصاح محتداً:

ما بك يا رجل. أُمم بحالها تطالب بحق اللجوء.. أُمم باكملها، بتاريخها وتقاليدها، رهنت كل مقدراتها لدى اميركا.

أَبعَد كل هذا البلاء الشاسع (وصفت شيطاني) تستكثر طلب اللجوء على رجل مثلي، طريد العدالة، لا ظهر له ولا ظهير؟

فقاطعته متسائلاً:

"المهم.. ماذا حدث بعد ذلك؟"

قال: ادخلوني على المسؤول، فنظر في اوراقـي، وراح يـسألني عـن اشياء عرفتها واشياء لم اسمع بها في حياتي. تحـدث عـن اشـياء كثـيرة. وكان في نغمة حديثه شيئاً مـن الغوايـة لا عهـد لي بهـا. كـان يـراودني بتزعم عصابة لاثارة القلاقل في مملكة الشياطين... تصور!!

رفضت طبعاً.

وعندها قال لي بالحرف الواحد.

"عموماً، نحن لسنا معنيين في الوقت الراهن بالتدخل في القـضايا الاقليمية لعالم الشياطين.."

ثم قذف الملف نحوي منهياً المقابلة.

واثناء حركته سمعت قرقعـة اسـفل مكتبـه، فاسـترقت النظـر إلى اسفل، فاذا بحافرين مشقوقين لامعين يعلوهما شـعر شـيطاني غزيـر. فاسرعت بالخروج مهرولاً ارتعد من الخوف

فقلت:

والآن ماذا ستفعل.

قال: انا الآن بصدد اعادة ترتيب يقيني القديم بضرورة تجميع كل قوى بلوريتاريا الشياطين المسحوقة لمواجهة جشع هذا الشيطان الأكبر.



الفهـرس



إبراهيم زعرور

الشارع الذي رحل





المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
بجانب مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ◆ منشوراتنا في العام ٢٠٠٩ م
◆ الغلاف : علي الحسيني